من بولتافا إلى هانكو

لقـد غيّر الانتصـار في معركـة بولتافا سـير الحرب جذريًـا، ووضع حدًا فاصلًا بين ما كان قبلها، وما جاء بعدها من أحداث على مسـرح العمليات الحربية، وقد أدرك بطرس ذلك تمامًا، شـأن سائر الرُوس، وكما هي العادة أثنـاء انتصارات السِّلاح الرُوسـي، جرى الاحتفـال بالنصر الباهـر الجديد، بأكبر قدر من الفخفخـة والابتهاج، وبكل ما يقوى عليـه القيصر الماهر والحـاذق من إبداعـات واختراعات، وبناء على خطته جابـت القوات المظفرة شـوارع موسـكو وسـاحاتها، واقتيد أكثر من ٢٢ ألف أسـير سـويدي (من أسـرى معركتي ليسـنايا وبولتافـا)، وحملت كميات مـن الغنائم لا تُعد ولا تُحصى، وكان في مسـيرة الأسـرى الكونت بيبر الوزيـر الأول للملك السويدي، ومن الغنائم النقّالة التي حملوا عليها الملك كارل إبان المعركة، وفي عيد رأس السـنة (١٧١٠)، شـاهد أهالي موسكو مهرجانًا جديدًا لا يقل عن ذلك فخفخة، فبعد صلاة العيد في كاتدرائية العذراء في الكرملين، أُشعلت ألعاب نارية هائلة بمناسبة النصر في بولتافا.

وفي أوربـا بعد معركـة بولتافـا اختفي ازدراء روسـيا، وحلت محله هزة واحترام مختلط بالخوف مـن قدرتها، أما البلاطات الأوربية التي كانت فيما سـبق تسـخر من الدبلوماسـيين الرُوس فقد أخذت تبدي اهتمامًـا بالغًا بهم، لكنهـم- علـى غرار قيصرهم- صاروا يتصرفون برزانة وهدوء، وبشـعور من الكرامة الشـخصية والاعتـزاز بوطنهم روسـيا، ولم تكـن الاحتفالات والمدائـح والتمجيد قد أسـكرت بطرس، فلم يسـتعجل في القتال ليقصم ظهر السـويد نهائيًـا، والأكثر من ذلك أنه كان كالسـابق يسـعى إلى إنهـاء الحـرب، وتوقيع معاهدة الصُلـح، ففي أعقاب معركـة بولتافا طرح اقتراحات فيها كثير من الاعتدال لمراعاة المصالح الشَّرعية لروسيا، وتناولت الاقتراحـات حصول روسـيا علـى الأراضي المتاخمـة للخليـج الفنلندي التي تؤمن لها منفذًا إلى البلطيق، وسلّمها إلى الجانب السويدي الجنرال ميرفيلد، وسـكرتير الملك السويدي تسيديرهيلم اللذان وقعا أسيرين بأيدي الرُوس،

إلا أن كارل الثَّاني عشـر رفض المقترحات السلمية من جديد، ومن الغريب أن الملك السـويدي يتصرف وكأن شيئًا لم يحدث، فهذا الحاكم الذي دمر بلده، وأهلك جيشـه، وصار بمثابة المتطفل على بلدٍ آخر إنما يتصرف بثقة في النِّفـس تـكاد تبلـغ ثقة المنتصـر في نفسـه، وراح يبعث إلى السـويد إيعازات متوالية بشأن تجنيد المقاتلين، ومواصلة الحرب، مع أن شعبه البالغ عـدده مليونـا ونصف المليـون يئن ويتضور مـن الهزال والاسـتنزاف، لكن الملك أصم لا يسـمع شيئًا، ولا يعير انتباهًا للتوسلات والتقارير القادمة من اسـتوكهولم، والتي لا تسـر أذنيه، وقد أمر بألا يرسـلوها إليـه بعد الآن، أما سلطات اسـتوكهولم فهي تطبق أوامره بصورة عمياء، وتحمد ربها لإنقاذ الملك، وتنشر بخصوص ما حدث في بولتافا إشاعة سخيفة تقول إن عشرين ألف سويدي هناك انهزموا أمام ٢٠٠ ألف رُوسي.

صحيح أن السـويد كانت لا تزال تحتفظ ببعض الآمال، فلديها أسطول شـديد البـأس في البطليق, ولم تلحـق الحرب ضررًا بأراضيهـا , وتوجد قوات سـويدية في السـويد وفنلندة وبوميرانيا والنرويـج، بالإضافة إلى ما يوجد منها في السويد نفسها.

زد علـى ذلـك أنه كان هناك ما يبرر انتظار مسـاعدة عسـكرية من دول أوربا الغربية, مثل بريطانيا وهولندا والنمسا من جهة, وفرنسا من جهة أخـرى، فإن حـكام هذه الدول، انطلاقًـا من مصالحهم، كانـوا يأملون في استمالة السويد إلى جانبهم، لكن هذه المخططات انهارت وتقوضت للأسف الشديد، واضطرت البلاطات الأوربية المصعوقة إلى إعادة تنظيم مخططاتها في السياسة الخارجية على جناح السرعة، ويقول المؤرخ الأميركي روبرت ماسـي: « إن بولتافا غدت «تحذيرًا خطيرًا» للعالم كله، وصار «الساسة الأوربيـون، الذيـن كانـوا فيما سـبق يبـدون اهتمامًا بالقيصـر، لا يزيد كـثيرا عن اهتمامهم بشـاه بلاد فـارس، أو مهراجا الهند يتعـودون من الآن فصاعدا على مراعاة المصالح الرُوسـية بدقة، فإن ميزان القوى الجديد الذي أقامه في ذلك الصباح مشـاة شيريميتيف، وخيَّالة مينشيكوف، ومدفعية

بـروس، والجبار العمـلاق الذي قادهـم جميعًا، كان سـيبقى ويتطور في القرون الثَّامن عشر، والتَّاسع عشر، والعشرين».

ولكـن روسـيا رغـم «ميـزان القـوى الجديد» اضطـرت علـى مواصلة الحـرب، ولأمـدٍ طويـل جـدًا، فقـد اضطر بطـرس وقادتـه العسـكريون ودبلوماسـيوه الذيـن صـاروا أكثر خـبرة بكثير مـن السـابق، إلى قيادة القـوات مـرارًا وتكـرارًا، وإلى شـدّ وحلّ عقد مهمـات السياسـة الخارجية المتشـابكة، وأدت حصيلة معركـة بولتافا إلى تسهيل أمور كثيرة، فقد التقطت سكسـونيا والدانمرك أنفاسها، وصار بالإمكـان ـ اعتمادا على بطرس وعلى قوة روسيا ـ فسخ معاهدتي ترافيندال والترانشتادت المهينتين بالنسـبة لهمـا، وزج أغسـطس الثانـي بقواتـه السكسـونية في بولونيا التي فرَّ منها ستانيسـلاف ليشينسـكي، وانسـحب كراسـاو مع جيشـه السـويدي إلى بوميرانيا، وأعلن حاكـم سكسـونيا مـن جديد عن حقوقه في عـرش بولونيـا بعد أن تخلى عنها قبل ثلاث سـنوات، أما توقيع المعاهدة مع كـارل في الترانشـتادت، كـما يقـول حاكم سكسونيا، فالذنب فيه يعود إلى مستشـاريه الرديئين، كل ذلك قاله أغسطس الثَّاني إلى بطرس أثنـاء لقائهما في مدينة تورون البولونية في تشـرين الأول (أكتوبر) ١٧٠٩، وتظاهـر القيصـر بأنه يثـق به، فهـو مضطـر إلى التحالف معه مـن جديد، لكنـه أراد أن يلعب على أعصابه قليلًا، فقد جاء للقائه ومعه سـيف أثار حيرة واضطراب «صديقة وحليفه»، الذي استعاده مجددًا، وظل أغسطس يحدق في السِّـيف، ولا يدري كيف يتخلـص من الخجل الذي اعتراه، فهذا السـيف كـان بطرس قـد أهداه إيـاه في حينه، لكن أغسـطس أهداه إلى الملك السـويدي في الترانشـتادت، وقد عاد السِّـيف إلى القيصر مع الغنائم الأخرى من سـاحة القتال في بولتافا، وأبدى بطرس هنا أيضًا سماحة وطيبة قلب، فقد سلَّم السيف ثانية إلى أغسطس...

وقَّع العاهلان في تورون معاهدة استئناف التحالف، وكـان أغسطس قد فسخ معاهدة الترانشتادت في بداية آب، وراح يتزلف إلى بطرس حتى أفرط

في التزلف والخنوع، مع أنه ظل كما كان في السابق حليفًا رديئًا، ووفق المعاهدة الأولى حصل على مساعدات مالية، وعلى ليفلانديا، لكنه وافق على ضم ايسلانديا وعاصمتها ريفيل، فضلًا عن اينغريا إلى روسيا.

وفي عام ١٧١٠ اعترفت بولونيا، من خلال مجلس السيم في وارشو، بمعاهدة نارفا لعام ١٧٠٤، و«بالصُّلح الأبدي» لعام ١٦٨٦، ووقعت روسيا مع الدانمرك أيضًا معاهدة جديدة للتحالف والحرب ضد السويد، وبطل مفعول معاهدة ترافيندال، وبذلك استؤنف الحلف الشِّمالي، إلا أن روسيا وحليفتيها الدانمرك وسكسونيا قدمت نزولًا عند طلب بريطانيا وهولندة، ضمانات تؤكد أن القوات الدانمركية والسكسونية ستحارب كالسَّابق إلى جانب الحلف الكبير ضد فرنسا، وتمكن بطرس كذلك من تحييد بروسيا وهانوفر.

كان الموقف لا بأس به حسب الظاهر، لكن بطرس سرعان ما تأكد من جديد أن روسيا يجب أن تعتمد على نفسها فقط في الحرب ضد السويد، فإن أغسطس الذي هُزم مرارًا في سوح القتال مع السويديين يحاول أن يتملص من العمليات الحربية الجديدة، صحيح أن الدانمرك انخرطت في القتال بهمة لكي تأثر من السويديين، وظهرت قواتها في جنوب اسكندينافيا، وضربت العدو في البداية، لكنها سرعان ما تكبدت هزيمة ماحقة على يد الجنرال ستينبوك في شباط (فبراير) ١٧١٠.

أما الجيوش الرُوسية فقد ظلت تحرز النصر تلو النصر، وغدا عام ١٧١٠، من هذه الناحية وفير «المحصول»، كان جيش شيريميتيف يقاتل في البلطيق، أما الفيلدمارشال الجديد، مينشيكوف، فهو يقاتل في بولونيا، في البداية اقتحم الجنود الرُوس قلعة ايلبينغ، ثم جاء دور ريغا، بدأ حصارها في تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٠٩، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) وصل بطرس، وأطلق القذائف الثلاث الأولى من المدافع، لكن النصر لم يتحقق هنا في فصل الشتاء، زد على ذلك أن الطاعون الذي تفشى في هذه البقاع، حصد المحاربين الرُوس أكثر مما حصدهم رصاص العدو، وفي الربيع

استؤنف الحصار، وكان تامًا من جهة البر والبحر، ونفذ شيريميتيف إيعاز بطرس الصارم: « لا تحاول الاستيلاء على هذه المدينة بهجوم رسمي ما عدا الحصار الخانق؛ لأن الوقت متأخر أولًا، وثانيًا لأن حاميتها كبيرة، والقلعة ذات دفاع متين جدًا، وثالثًا ليس هناك خطر من جانب السويديين، ولا مجال لانتظار النصر».

استسلمت ريغا في ٤ حزيران (يونيو) بعد أن قصفها الرُوس بالمدفعية، وفي آذار (مارس) من العام ذاته بدأ حصار فيبورغ، وقد وضع بطرس خطة هذا الحصار، وترأس هو أيضا في آيار (مايو) حملة ٢٥٠ سفينة نقل محملة بالجنود والمدفعية والذخيرة، وكانت ظروف الحملة عصيبة للغاية، فالبحر لم يتخلص بعد من الجليد، والقعلة المنيعة ذات حامية قوية وفيها مدفعية، وبغية تضليل المحاصرين أوعز القيصر إلى البحارة بأن يرتدوا البزات السويدية، كما رفعت الأعلام السويدية على السُفن، وتفحص بطرس القلعة بكل اهتمام من البحر والبر ورسم خطة العمليات، وأوعز إلى ابراكسين قائلًا: « حال ما تكون الثغرات وغيرها جاهزة حسب خطتي، يجب إطلاق النار منها طوال ما لا يقل عن أسبوع، ثم يبدأ الهجوم».

واستسلمت فيبورغ على غرار ريغا، وتم ذلك في ١٣ حزيران (يونيو)، وفي اليوم التَّالي دخل بطرس القلعة على رأس فيلق بريوبراجينسكي، تفحص استحكامات القلعة طوال ثلاثة أيام، واحتفل بالنصر هنا في البداية، ثم في بطرسبورغ، حيث حمل القيصر المقدم وأفراد أفواج الحرس الغنائم من الرايات السويدية في شوارع المدينة.

وفي نفس تلك الحملة، وضعت السلاح أمام القوات الرُوسية حاميات ديناميوندي وبيرنوف (بيارنو) وريفيل (تالين) وكيكسهولم (كوريلا)، وكانت لدى بطرس كل المبررات ليعبر عن فرحته وارتياحه بخصوص حملة ١٧١٠ الموفقة: «هكذا طهرنا ليفلانديا وايستلانديا من العدو تماما، وباختصار فإن العدو لم يعد يمتلك على الساحل الأيسر لهذا البحر الشرقي (البلطيق ـ ملاحظة المؤلف) لا مدنًا ولا أراضي».

وهكذا طهرت القوات الرُوسية منطقة البلطيق من السويديين، وبهذه المناسبة أطلقت صليات المدافع في بطرسبورغ، ودقت النواقيس ثلاثة أيام، وزُينت السُفن الراسية في نيفا بالأنوار، ولم ينقذ السويد شيء بعد أن استنزفت قواها، وهُزمت مرارًا، لم تنقذها الجهود الحربية المحمومة، ولا مساعدات بريطانيا وهولندة والنمسا على الصعيد الدبلوماسي. وبجهود هذه الدول أعلنت «لائحة الحياد» التي يراد لها أن تحول دون دحر السويد نهائيًا على يد روسيا، وتمنع هذه الأخيرة من الظهور على مسرح أوربا الغربية، وفي ٢٢ حزيران (يونيو) ١٧١٠، اعترف بطرس بهذه اللائحة للإبقاء على حلف الشمال، وعلى العلاقات الطيبة مع عدد من أبرز بلدان أوربا، وللحصول على فترة هدوء، ومنع تلاحم الدول الأوربية على أساس العداء للرُوس، ويقول شافيروف: «مع أن هذا شيء يتعارض مع المصالح العليا لجلالة القيصر وحلفائه، فقد تفضل، من أجل تبيان اعتداله أمام العالم كله، بالاتفاق مع حلفائه، وإقناعهم بقبول هذا الاقتراح رغم عدم جدواه».

واستحسنت الحكومة السويدية في استوكهولم «لائحة الحياد» برغبة وفرح، لكن الملك ركب رأسه هذه المرة أيضًا، فلم يصادق عليها، فضاعت جهود البلاط البريطاني وغيره. وتلقى السفير البريطاني في استوكهولم توجيها من لندن، تضمن عدم رضاها عن البلد الذي يمثل بريطانيا فيه: «الوزراء السويديون يلحون في أن ننقذهم، ويحرموننا في الوقت ذاته من فرصة العمل، عندما يرفضون لائحة الحياد التي هي الوسيلة الوحيدة المتوفرة لدينا كي نسدي لهم هذه الخدمة».

وبإصرار من الملك راحت السويد تستعد لمواصلة الحرب، وخططت روسيا وحلفاؤها، بعد الحصول على ذريعة ملائمة، لحملة على بوميرانيا التي ترابط فيها قوات العدو، وفي هذا الموقف بذل الساسة الإنجليز جهودًا جديدة لإنقاذ السويد، والهدف الرئيس من تلك الجهود هو الحيلولة دون تعزز روسيا، وتلقى ويتورث، السفير البريطاني في موسكو توجيها «ببذل قصارى الجهود»، لجعل روسيا تطرح من جديد مسألة توسط بريطانيا في

توقيع الصُلح مع السويد، لكن الأوضاع تبدلت، فلئن كان الدبلوماسيون الرُوس في البلاطات الأوربية قد سعوا سابقًا إلى الالتقاء بزعماء تلك البلدان، وطلب بطرس الوساطة منهم، فإن روسيا الآن صارت تتصرف على نحو آخر، فقد طال انتظار مثل هذا الطلب، وأبدى ويتورث نفسه مبادرة بهذا الخصوص، فأثناء الاحتفال في موسكو بالنصر في معركة بولتافا، حيث اقتادوا في شوارع العاصمة عشرات الآلاف من الأسرى السويديين، تكلم السفير مع القيصر ومع معاونيه الدبلوماسيين عن توقيع الصُلح «بشروط معتدلة»، وبوساطة بريطانيا، ولم يتلق السفير جوابا.

وفي أواسط كانون الثاني (يناير) فقط، أعلن شافيروف نيابة عن بطرس أن روسيا مستعدة للصُلح إذا روعيت «مصالح دولته»، ويمكن القبول بوساطة بريطانيا، إذا تقدمت باقتراح حول الموضوع بشكل مقبول، أي عملًا بالمعروف، وفي سياق المفاوضات اللاحقة لا تطلب روسيا الانضمام إلى الحلف الكبير، بل تقدم بريطانيا اقتراحًا بهذا الخصوص، وأخيرًا تقدم بطرس باقتراح حول توسط روسيا لأجل توقيع الصُلح بين بلدان الحلف الكبير وفرنسا.

بهذه الصورة الجذرية تغير الموقف، وصارت روسيا تؤدي دور الدولة الكبرى، كل ذلك يطفو على سطح الأحداث، أما وراء الكواليس، فإن بلدان الحلف الكبير استمرت في دسائسها ضد روسيا، وهي دسائس لا بد وأن تعتبر أعمالًا معادية في الواقع، ومنها محاولات تفكيك الحلف الشمالي (مثل استمالة الدانمرك إلى صلح انفرادي مع السويد)، والمفاوضات مع السويد التي وعدوها، في حالة مواصلة حربها ضد روسيا، بإعادة كل ما تفقده وذلك عن طريق «صلح عام».

وفي شباط (فبراير) ١٧١٠، بعثت ملكة بريطانيا آن رسالة شخصية إلى بطرس، نعتته فيها «بالإمبراطور»، وفي السنوات اللاحقة ظلت العلاقات بين روسيا وبريطانيا جيدة حسب الظاهر، مع أنها متوترة بسبب عداء مجلس الوزراء البريطاني (شأن البلاطات الأوربية الأخرى) لروسيا، إلا

أن دبلوماسية بطرس وأعوانه الحكيمة الصبور وتعزز قدرة روسيا قد فعلا فعلهما، حيث أمكن الحيلولة دون تقديم دعم عسكري سافر إلى السويد من جانب بريطانيا وغيرها من البلدان.

ولكن ليس بالإمكان توقع كل الاحتمالات، فقد جاء العام التالي ١٧١١، بمفاجأة مؤذية جدًا، فالخطر الذي بدا مهلكا في زمن ما قد أتى من الجنوب، من العثمانيين، حيث تلقت الآستانة نبأ انتصار روسيا في بولتافا بخوف وبسورة من الغضب، وأخبر تولستوي ـ السفير الرُوسي في الأستانة من عدة سنين ـ رئيسه مدير العلاقات الخارجية قائلًا: « لا تدهش لأني كنت أبلغك برغبة الباب العالي في السلام عندما كان الملك السويدي بكامل قواه، وأقول لك الآن، بعد دحر السويديين، إنني أشك وارتاب، وسبب شكي وارتيابي، أن العثمانيين يرون أن جلالة القيصر انتصر على الشعب السويدي القوي، وسرعان ما يريد أن يرتب الأمور في بولونيا على هواه، وبعد ذلك، حيث لا يوجد أمامه أي عائق، يمكن أن يبدأ الحرب ضدهم، ضد العثمانيين، هكذا يفكرون، ولا يصدقون أبدًا بأن جلالته لن يبدأ حربًا ضدهم إذا فرغ من الحروب الأخرى».

لم تكن الأستانة خائفة من تزايد قوة روسيا فقط، فهي تريد استعادة آزوف والهجوم مجددًا، كالسابق (مع عساكر القرم)، على المناطق الجنوبية في روسيا وأوكرانيا وبولونيا. صحيح أن السلطان أحمد الثالث أكد في كانون الثاني (يناير) ١٧١٠، على شروط معاهدة الأستانة التي وقعها أوكراينتسيف قبل عشر سنوات، أما بخصوص كارل الثَّاني عشر الذي وجد نفسه في الممتلكات العثمانية، فقد وافق العثمانيون على عودته إلى الوطن من خلال بولونيا بمراقبة فصيلة روسية، وكان ذلك نجاحًا ارتاح له بطرس حتى منح تولستوي ترقية في الخدمة، وقد تصرف السفير كالعادة، حيث سلَّم إلى الصدر الأعظم ٢٠٠٠ كيس من النقود السويدية من غنائم بولتافا، وحظي تولستوي بمقابلة السُلطان الذي أعلن بأنه مستعد لتأكيد الصُلح.

إلا أن الملك السويدي كان هو الآخر بعين ساهرة، فقد استخدم الذهب الذي نهبه الخائن مازيبا، الذي مات مجللا بالعار خارج الوطن، واقترض الملك مبلغًا آخر من أصحاب البنوك الإنجليز والهولشتينيين، ثم إن ملك بريطانيا وحاكم هولشتين خصصا له مالًا كثيرًا، وبذل كارل قصارى جهده لتأليب السُلطان على روسيا، وراح يقنعه قائلًا:

«نلفت انتباه جلالتكم الإمبراطورية، إلى أنه إذا تركنا للقيصر وقتا كي يستفيد من المنافع التي حصل عليها من مصيبتنا، فسيهجم فجأة على إحدى ولاياتكم، مثلما هجم على السويد مع حليفه الغادر، هجم عليها في عهد السلم، دون أن يعلن الحرب إطلاقًا، وأن القلاع التي بناها على الدون وعلى سواحل بحر آزوف وأسطوله تفضح نواياه الواضحة من حيث أضرارها ضد إمبراطوريتكم، وفي مثل هذا الوضع تعتبر الوسيلة الأنجح لدرء الخطر الذي يتهدد الباب العالي، هي التحالف بين إمبراطوريتكم والسويد، سأعود إلى بولونيا برفقة خيالتكم الفرسان، وأعزز قواتي المتبقية هناك، وأغرز السِّلاح من جديد في قلب الدولة الموسكوبية، لأضع حدًا لغطرسة القيصر وتسلطه».

ومارس مختلف الدسائس ضد روسيا في بلاط السُلطان العثماني مخبرو الملك السويدي الجنرال ستانيسلاف يونياتوفسكي ممثل ليشينسكي في بلاط كارل، ومارتن نيبيهاور سكرتير الملك، والمغامر الألماني المربي الفاشل للأمير الكسي بن بطرس، الذي طرد من الخدمة في روسيا بسبب عدم أهليته ووقاحته، والأهم أن في حوزة الملك في تلك اللحظة أموالًا أكثر مما عند السفير الرُوسي، وتبدل الصَّدر الأعظم من جديد، وكان أحد الوزراء العثمانيين، وهو محمد باشا بنطجي، يكره روسيا على المكشوف، ولم يردوا على رسائل بطرس إلى السُلطان حيث انطلق القيصر الرُوسي من مواقف معتدلة جدًا لاستمالة العثمانيين إلى الصُلح، ووصل دولت جيري خان القرم إلى الأستانة، وهو يحلم من زمان بشن حملة على روسيا، وأعلن عن الحرب رسميا في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧١٠، ومن جديد، وكما

حـدث مرارًا قبـل ذلك، اقتادوا الـسـفير الرُوسـي على ظهر فـرس عجوز عبر المدينة كلها، إلى سـجن الأبراج السـبعة في أطراف العاصمة على سـاحل بحر مرمرة، ومن جديد زج بالسفير تولستوي في السجن، ونهب الأهالي داره.

كـانـت خاتمـة الأحـداث هـذه بقـدر كبـير أيضًـا، نتيجة لدسـائس الدبلوماسيين الأوربيين في الأستانة، وتنفيذاً لتوجيهات حكوماتهم أججوا الخـلاف بين الأسـتانة وروسـيا ليجروهما إلى النـزاع، وإلى الحـرب في آخر المطاف، وقال وزير الخارجية البريطاني سـان جون: «من مصلحتنا دون شك، أن نغـذي الحريق في هذه الأرجاء حتى ننهي قضيتنا الكبرى مع فرنسـا»، وكان أكثـر الجميع تدبيرًا للدسـائس الـسـفير الفرنسـي ديزالير، الذي نعتوه بحق بـ«نائب السلطان».

كانت بداية النزاع مع الآستانة الذي استثاره ملك السويد والدبلوماسيين الأوربيون تعني بالنسـبة لروسيا حربًا على جبهتين، ولم يكن مرغوبًا فيها طبعًـا، إلا أن بطـرس في عهـد النشـوة المعروفة بعد الانتصـار في معركـة بولتافـا كـان ينظر إلى الأمور بمنظـار الأمل على الأقل، إن لم نقل بمنظار مشـرق وضاء، حقًا، فالجيش الرُوسـي صار بعد معركـة بولتافا يعتبر من أفضل الجيوش في العالم، زد على ذلك أن الموقف غدا ملائمًا حسب الظاهر: فـإن قسـطنطين برينكوفيانـو حاكـم فالاخيـا، ودميـتري كـانتيمير حاكم مولدافيا وقعا اتفاقيتين مع بطرس، ووعدا بالتزام جانبه، وتخصيص قـوات وأغذيـة مقابل تحريـر أراضيهما من النـير العثمانـي، والانتقال إلى حماية روسـيا، كمـا وعد بتقديـم القوات والأغذية ممثلو الصرب والجبل الأسـود اللذين كان شـعباهما، شأن سائر الشعوب السَلافية (الصقالبة) في البلقان، ينويان إعلان الانتفاضة على مضطهديهما العثمانيين.

وحـاول بطـرس عـدة مـرات أخـرى أن يسـتميل السُـلطان إلى الصُلح، وطلب من بريطانيا وهولندة التوسـط في توقيع الصُلح مع السويد، وأعرب عن اسـتعداده لـترك ليفلانديا مع ريغـا لصالح بولونيـا، ودفع تعويضات إلى السـويد مقابـل جزء مـن فنلندة، ولا ينتقـل إلى روسـيا سـوى اينغريا،

وكاريلا ونارفا، لكنه لم يوفق في هذا وذاك، فاضطر إلى القتال على جبهتين.

وبدأ القيصر نشاطه على طريقته الخاصة بهمة وإصرار، فالصعوبات، كما هي العادة، تدفعه وتستحثه، وبعث إلى ابراكسين، متصرف مدينة آزوف، ايعازات بإعداد الأسطول للمعارك، وإعداد الزوارق والقوارب لأجل قوزاق الدون، ودعوة القلميق وتتر كوبان لمقاتلة عساكر القرم، وراح القيصر يستعجل شيريميتيف حيث يتعين عليه أن يزحف من البلطيق إلى الجنوب، إلى مسرح العمليات الحربية الجديد، فهذا الفيلدمارشال يتميز بالتباطؤ عادة، ولذا استحثه القيصر، واستعجله وأعربت رسائله إليه عن نفاد صبره.

- استعجل.

- ارسل الأفواج فورًا إلى الأماكن المقررة.

- يجب التحرك من كل بد، لأن المشاه إذا تخلفوا، وهجم العدو على الخيالة وحدهم قد يعم خوف عظيم.

وراقب القيصر بكل اهتمام تحرك قواته، وتزويدها بالمؤن والذخيرة، وتدريب المجندين الجدد، وإمدادات الجيش، وفي ٢٥ شباط (فبراير) ١٧١١، تلى في كاثدرائية اوسبينسكي في كريملين موسكو بيانه، الذي أعلن فيه الحرب على العثمانيين، وفي ٦ آذار (مارس) ارتحل إلى الجيش المقاتل، وقبل ذلك بأيام، في الثّاني من آذار، أصدر مرسومًا بتشكيل السينات (مجلس الشيوخ)، الهيئة العليا للدولة، وعلى حد تعبير مؤسسة بطرس:

- قررنا تشكيل السينات الحكومي لأجل الإدارة في غيابنا.

تأسست هذه الهيئة مؤقتًا، لكنها استمرت أكثر من قرنين، وترك القيصر توجيهات صارمة بخصوص واجبات الهيئة الجديدة، وحدود سلطاتها، وهي مكونة من ٩ أعضاء، وضع القيصر نفسه قائمة باسمائهم:

- فليتمسك كل شخص بأوامرهم كما يتمسك بأوامري، ويعاقب المخالف بعقابٍ شديد، أو بالموت حسب ذنبه.

وكلف بطرس مجلس السينات بالرقابة العليا على الدعاوى القضائية، وصرف الأموال ومضاعفتها لأن «النقود شريان الحرب»، على حد تعبيره.

آنذاك، في يوم الرحيل، أعلن بطرس عن زواجه الشرعي من يكاترينا، وهي مارتا سكافرونسكايا خادمة أحد القساوسة سابقًا، التي نشأت بينه وبينها علاقات طيبة خلافًا لزوجته الأولى، ورزق منها بابنتيه آنا ويليزافيتا، وقد جرى عقد القران في الكنيسة قبل ذلك، في شباط (فبراير)، وكان مصير زوجته وبنتيه يقلقه، فهو لا يستبعد النتيجة السيئة غير المتوقعة بالنسبة له شخصيًا في تلك الأحداث المفاجئة، (وبالمناسبة فقد انتابته مشاعر مماثلة في عام ١٧٠٨، عندما أمر، تحوطًا لاحتمال مقتله، بتسليم ٣ آلاف روبل إلى «يكاترينا فاسيليفسكايا وبنتيها»)، واعترف بطرس إلى مينشيكوف بصدد أسباب عقد القران رسميا:

- أنا مضطر للقيام بذلك لأن خاتمة هذا الطريق غير معروفة، فإذا قضيت سيتمكن من العيش، والحال هذه بشكل أفضل.

وفي الطريق بلغه نبأ موت ولي العهد الجورجي (الأيميريتي) في الأسر السويدي، فتشكى إلى صديقه الحميم مينشيكوف قائلًا:

- يؤلمني جدًا موت هذا الأمير الرائع، ولكن ما فات لا يعاد ولا نفع في الذكريات، الكل فان إلا الله.

ويبدو أن القيصر قلق جدًا من الحرب القادمة ضد العثمانيين، وسرعان ما تأكدت مخاوفه، وصلت القوات الرُوسية إلى مولدافيا في ٣٠ حزيران (يونيو)، وكان القيظ شديدًا، والجنود عطشى لدرجة جعلت الكثيرين منهم لا يتحملون الآلام، فجنوا وانتحروا، ولم تصل المساعدة الموعودة ولا المؤونة، وأقدم برينكوفيانو على الخيانة، وأفشى خطة الحرب، وظل حاكم مولدافيا كانتمير على العهد، لكن مساعدته لم تكن بالحجم

المتوقع، كما أن صقالبة البلقان المضطهدين من قبل الباب العالي لم يتمكنوا من تقديم مساعدة تذكر.

لكن الحملة استمرت، وعبر الجيش الرُوسي نهر الدنيستر، ووصل إلى بروت، وفي الطريق إلى الجيش ابدى بطرس اهتمامًا بإمداد حاميات مدن البلطيق بالمجندين الجدد، بعد أن أصابها الضعف نتيجة لتوجه قسم كبير من القوات إلى الجنوب، وراح يستعجل القطاعات المتجهة إلى مولدافيا:

ـ نفذوا كل الواجبات دون أن تضيعوا الوقت، فإذا تباطأنا سنفقد كل شيء.

ـ نؤكد عليكم أن تعملوا بسرعة، وتستعجلوا في إيصال فرق المشاه إلى المكان المطلوب، فالحاجة ماسة إليها.

ـ أسرعوا، عجلوا.

بطرس مفعم بالآمال، و يخيل إليه أن النصر على العثمانيين قريب:

ـ الصرب والبلغار وسائر أبناء الشعوب المسيحية، سيهبون بوجه الأتراك، وسينضمون إلى قواتنا، والبعض سينتفضون داخل الدولة التركية، وإذا رأى الصدر الأعظم التركي ذلك لن يتجرأ على عبور الدانوب، وسيفر قسم كبير من قواته، وربما سيعلنون الصعيان.

إلا أن الصَّدر الأعظم، والجيش العثماني تجرأ على عبور الدانوب الذي لم يتسع الوقت لشيريميتيف حتى يصل إليه، بل ووصلا إلى بروت، وفي ٩ تموز (يوليو) طوقت العساكر العثمانية بالكامل الجيش الرُوسي البالغ تعداده ٣٨ ألف مقاتل، وكان بقيادة الصَّدر الأعظم ١٣٥ ألف رجل (١٨٠ ألفا من التتر)، وبدأ الانكشارية بشن الهجوم، وقد وصف هجومهم المريع بونياتوفسكي الذي كان مستشارًا عسكريًا للصَّدر الأعظم العثماني:

ـ استمر الإنكشارية بالهجوم دون أن ينتظروا الأوامر، كان يصيحون بأعلى أصواتهم «الله أكبر، الله أكبر»، وهجموا على العدو شاهرين السيوف، وكان بوسعهم أن يخترقوا الجبهة طبعًا في هذا الهجوم القوي

الأول، لـولا المراجيم التي اعترضهم بها العـدو، وفي الوقت ذاته تعرضوا لنيران شـديدة بتصويب مباشـر تقريبًا، فخفت حماسـهم، وارتبكـوا، واضطروا إلى الانسـحاب علـى عجل، راح معـاون الصدر الأعظم وآمر الانكشـارية يطعنـان الهاربـين بسـيفيهما لإيقافهـم، وإحـلال النظـام، وراح أكثرهم شـجاعة يتصا يحون من جديد ويهاجمون للمرة الثانية، ولم يكن الهجوم الثَّاني شديدًا كالأول، فاضطر العثمانيون إلى الانسحاب من جديد.

واسـتمرت المعركة ثلاث سـاعات، وتمكن جيش بطرس الصامد غير الهيـاب من صد هجمات الأعـداء، ودُمرت بنادق الجنـود، وكذلك المدفعية بخاصة صفوف العثمانين الذين فقدوا سـبعة آلاف قتيل، وكانت خسـائر الـرُوس أقـل بكثير، زد علـى ذلك أن بطـرس كان يسـتطيع في لحظة انسـحاب العدو أن يحقق «نصرًا تامًا»، علـى حد تعبير مؤلفي «تاريخ حرب الشـمال»، لـو تمكن من تنظيـم الملاحقة كمـا يجب، إلا أنـه وجنرالاته كانت تسـاورهم مخاوف ليسـت دون أساس، فلم يتسـن بعد إحاطة قوافل العربـات الرُوسـية بخنـدق حمايـة، وكان الجنـود مرهقـين مسـتنزفين بالعطش والحر والجوع، وبدا الموقف ميئوسًا منه، ولا مخرج فيه.

ولم تكـن حـال العثمانيين أفضل، مـع أن بطرس والـرُوس لم يكونوا يعرفـون بذلـك، فـإن قابليات الـرُوس القتالية صعقـت العـدو، فعندما أمر الصَّدر الأعظم في اليوم التالي، العاشـر من تموز (يوليو)، باسـتئناف الهجوم رفض الانكشـارية كذلك التقدم للقتال، وبهذا الخصوص بعث السـفير البريطاني ساتون تقريرًا إلى رؤسائه، جاء فيه:

«قال شـهود العيـان على هذه المعركـة ممن يتحلون بالعقل السـليم، أنه لـو كان الـرُوس يعلمون بالرعـب والحيرة اللـذان انتابـا العثمانيين، ويسـتطيعون أن يسـتفيدوا مـن تفوقهـم، ويواصلـوا القصـف المدفعـي، ويقوموا بهجوم لأمكنهم بالطبع أن يدحروا العثمانيين».

حقًا، فالجيش العثماني الذي يعادل أربعة أمثال الجيش الرُوسي قد شل، لكن بطرس لم يتصور ذلك، ولم يكن يعرف كذلك أن الجنرال رينيه نفذ أمره، واحتل برايلوف، ودخل مؤخرة العثمانيين، وصار يهددهم بالتطويق، وقد بعث تقريرًا بهذا الخصوص إلى القيصر، لكنه وقع في يد الصَّدر الأعظم، فقد أسر العثمانيون الرسول الرُوسي.

وفي نفس ذلك اليوم، العاشر من تموز (يوليو)، بعث بطرس رسالة إلى مجلس السينات:

«السادة أعضاء المجلس، أبلغكم بأني مع قواتي مطوقون بقوة تركية تفوقنا سبع مرات، ولا ذنب أو جريرة لنا سوى الأنباء الكاذبة، حتى إن كل الطرق قطعت أمام المؤونة، وأني -بدون عون كبير من العلي القدير- لا أرى أمامي سوى الهزيمة، أو أني أقع أسيرا بأيدي الأتراك، وإذا حصل هذا الأخير فلا تعتبروني قيصرًا، وحاكمًا لكم، ولا تنفذوا شيئًا مما أطلبه منكم، وإن كان صادرًا عني وبأمر مني، حتى أحضر بنفسي، وبشخصي أمامكم، ولكن إذا قتلت، وبلغتكم أنباء موثقة عن وفاتي، فاختاروا فيما بينكم أجدر وأليق شخص يرثني».

يمكن أن نفهم الأفكار اليائسة التي انتابت القيصر في تلك الأيام والساعات، فقد خيل إليه أن الهزيمة الماحقة، والأسر أو القتل شيء حتمي لا مفر منه، صحيح أن النص الأصلي لهذه الرسالة الوصية ضائع، وقد نشرها لأول مرة ياكوف شتيلين باللغة الألمانية في عام ١٧٨٥، واعتبرها الكثيرون مزورة، مع أن آخرين يعتبرونها صحيحة، وعلى أية حال فالموقف في تلك الأيام المنحوسة من تموز (يوليو ١٧١١)، يجعل كتابة مثل هذه الوثيقة من قبل بطرس أمرًا ممكنًا تمامًا، بل وضروريًا.

وفي نفس ذلك اليوم، العاشر من تموز، عقد بطرس اجتماعًا عسكريا اتخذ قرارًا بتقديم اقتراح إلى العثمانيين للبدء بالمفاوضات, وإذا رفضوا تقرر حرق العربات، ومهاجمة العدو، ووصل إلى الصدر الأعظم رسول يحمل رسالة من شيريميتيف:

« تعرفون معاليكم أن الحرب الحالية اندلعت ليس برغبة من جلالة القيصر، وتأمل أنها ليست برغبة من جلالة السُّلطان, بل بنتيجة تحريض من الآخرين، ونقترح وقف هذه الحرب باستئناف الهدوء السَّابق، الذي يمكن أن يعود بالنفع على كلا البلدين، وإذا كنتم لا تميلون إلى ذلك، فنحن مستعدون لغيره, والله يجازي المذنب في إراقة الدماء، وننتظر جوابكم على ذلك وعدة الرسول بأسرع ما يمكن».

ولم يصل جواب، كانوا في خيمة الصَّدر الأعظم يناقشون رسالة الفيلدمارشال الرُوسي، ويتجادلون بحمية ولأمدٍ طويل، كان خان القرم وبونياتوفسكي، صنيعة الملك السويدي، مصرّين على مهاجمة معسكر بطرس الحال، بينما كان القيصر وكل الجنرالات والجنود الرُوس ينتظرون الجواب، وهم يكادون يتهاوون على الأرض لانعدام الطعام والماء (حتى الخيول ظلت بدون علف لأن الجراد أباد الأعشاب)، ولم يصل الجواب، فبعثوا رسولًا آخر، وبلغ التوتر أقصى حدوده، ووصف السفير الدانمركي، نقلًا عن شاهد عيان، ما حصل في المعسكر الرُوسي:

« بلغ القيصر المطوق من قبل الجيش العثماني حدًا من اليأس والقنوط، حتى صار يجوب المعسكر راكضًا جيئة وذهابًا كالمجنون، وكان يضرب صدره بيديه، وقد عجز عن النطق وظنت أغلبية المحيطين به أنه مصعوق، وكانت زوجات الضباط الكثيرات ينتحبن ويولولن بلا انقطاع».

أما من جهة العثمانيين فلا خبر جاء، ولا وحي نزل، وأوعز بطرس إلى الأفواج بأن تتقدم للقتال، وتحركت الأفواج، لكن مبعوثًا عثمانيًا وصل في تلك الأثناء، ونزولًا عند طلبه بوقف الهجوم ـ لأن اقتراح الصُلح مقبول ـ توقف تحرك الجيش.

وبدأت المفاوضات، فانساق بطرس وراء التطرف من الجهة الثانية: فلئن كان في السابق قد استصغر قوى العدو، وبالغ في تقدير قواه، فهو الآن

على العكس يبالغ في قوة العثمانيين، ويستعد للقبول بأقصى التنازلات لانتزاع الصُلح مهما كلف الثمن.

كان الصَّدر الأعظم، وهو غير خبير في الشؤون الحربية، يميل إلى الصُلح لأسباب عديدة، فالعثمانيون ارتعبوا بالدرجة الأولى من الجنود الرُوس، فإن جيش بطرس النظامي بدا أفضل بما لا يقاس من الجموع الغفيرة التي تمثل الجيش العثماني، ولم تكن ترابط عند بروت كل القوات الرُوسية، وهذا أمر يعرفه العدو جيدًا، فقد تركت عمليات رينيه قرب برايلوف أثرًا عميقًا في نفسه، ثم إنه لم يكن يعتبر هجماته المتعثرة عند بروت نصرًا مبينًا، والأكثر من ذلك، أن العثمانيين كانوا يخشون من مكيدة حربية يعدها لهم الرُوس، فلم يصدقوا بأنهم جادين في الصُلح الذي حصل الصَّدر الأعظم، بالمناسبة، على موافقة السُلطان على عقده، الصَّدر الأعظم والسُلطان يعرفان باستعدادات النمسا التي تريد الاستفادة من الفرصة السانحة لتقوم بعملية للاستيلاء على منطقة ما في البلقان، ثم إن الأتراك يخشون الشعوب التي استبعدوها في هذه البقعة من الأرض.

وتوجه معاون المستشار شافيروف إلى المعسكر العثماني، اقتادوه إلى خيمة الصَّدر الأعظم فأشار عليه هذا الأخير بالجلوس، وكانت تلك دالة حسنة، (وإلا لتصرف بكبرياء وأنفة كالعادة)، وبدأت مفاوضات الصُلح، كان شافيروف قد وصل مستندًا إلى توجيهات القيصر بشأن توقيع الصُلح مهما كلف الثَّمن، حتى بتسليم كل ما كسبته روسيا في الجنوب (آزوف وغيره)، وفي الشمال، ما عدا اينغريا وبطرسبورغ، حتى بسكوف والأراضي الشمالية الأخرى كان الجانب الروسي مستعدًا لتسليمها، زد على ذلك أن بطرس وافق - في الحالة القصوى - على التضحية بكل شيء في الشمال أيضا، حتى يمكن التخلص من الأسر الشائن، والعبودية المهينة.

لكن الأمر لم يبلغ حد الشروط القصوى، فالصَّدر الأعظم والسُلطان، كما اتضح، لا يميلان إلى التطول على مصالح السويد، ثم إنهما ابديا

اعتدالًا بخصوص مطالبهما انطلاقًا من الوضع القائم، (فقد أخذا قدرة روسيا بعين الاعتبار أكثر من تقدير بطرس نفسه لها). وبالإضافة إلى ذلك لعبت دورًا معينا، كما يقال، مجوهرات الإمبراطورة يكاترينا التي رافقت زوجها كالعادة في حملته هذه، فيقال إن تلك المجوهرات أهديت إلى الصَّدر الأعظم، كان شافيروف البدين الرابط الجأش يساوم بفطنة وحذر دون أن يكشف عن ورقته الرابحة، ففي جيبه توجيه من بطرس:

- إذا تطرقوا إلى الصُلح بجد قامر بكل ما يريدونه، ما عدا العبودية.

لكن الصَّدر الأعظم لا يعرف بما في جيب شافيروف: واستمرت المفاوضات، بينما جرت الاستعدادات في المعسكر الرُوسي بشكل محموم لفك الحصار، وجمع بطرس المقربين إليه والجنرالات في اجتماع عسكري للمشاورة، ولا أحد يفكر في الاستسلام، وفي ١٠ تموز (يوليو) اتخذوا القرار التالي:

- حرق وإتلاف العربات، وتشكيل استحكام من بعضها، يستقر فيه فصيل من الفولوخ (الرومانيين)، والقوزاق، وتعزيزه بعدة آلاف من المشاة، ومهاجمة العدو بالجيش النظامي.

وفي ١١ تموز قرر الاجتماع ما يلي:

- تؤخذ خيول المدفعية الجيدة، أما باقي الخيول فتنحر، ويطبخ لحمها أو يشوى.

- بسبب شحة الرصاص، يقطع الحديد، ويصنع منه الخردق.

ونصت الخطة التفصيلية لفك الحصار على كل التفاصيل حتى أصغرها، فيجب التخلص من كل ما يمكن أن يعيق الهجوم على العدو، وتوزيع المؤونة على الجميع بالتساوي، فالرُوس وعلى رأسهم القيصر القائد لا ينوون الاستسلام، بل يريدون مقارعة العدو، ويفضلون الموت على الأسر العثماني.

وفي تلك الأثناء كانت الأمور في المعسكر العثماني تسير صوب السلام، فالعثمانيون لا يريدون أن يجربوا حظهم أكثر، كانت المفاوضات سائرة بسرعة و نجاح، وأجاب أحد الباشوات بحكمة ودون تردد عندما سألوه عن سبب هذا الاستعجال، فقال: « الرُوس «خصوم فظيعون»، و«صلابتهم» تجعل الأفضل أن يغادروا هذه الأماكن، وإلا فالمعركة الجديدة ستكلف العثمانيين غاليا، «ستكلفهم خسائر كبيرة بالأرواح»، وطالب الانكشارية الذين جربوا هذه الصلابة في ٩ تموز (يوليو)، بأن يوقع الصَّدر الأعظم الصُّلح بأسرع ما يمكن «فهم لا يريدون الهجوم، ولن يصمدوا أمام النيران الموسكوبية»».

وفي ١٢ تموز (يوليو) وقع معاهدة الصُلح عن الجانب الرُوسي شافيروف، وم. شيريميتيف (ابن الفيلدمارشال شيريميتيف، وهو جنرال)، وعن الجانب العثماني الصَّدر الأعظم محمد باشا بلطجي، ونصت شروط المعاهدة على أن تستعيد الآستانة آزوف، وبالإضافة إلى ذلك وعدت روسيا بتفكيك قلعة تاغانروغ على بحر آزوف، وحصن كامني زاتون على الدنيبر، ولا تحتفظ بقوات لها في بولونيا، ولا تتدخل في شؤونها ولا تكون لها ممثلية دبلوماسية دائمة في الآستانة، «وتسحب يدها» من القوزاق، وأهالي زابوروجية، أي لا تدعمهم، ولا تتصل بهم (وفهم بطرس ودبلوماسيوه ذلك على النحو التالي: عدم مطاردة القوازق أنصار مازيبا، وأهالي زا بوروجيه، الذين كان قسم منهم يقيم في الممتلكات العثمانية)، ووافق الطرفان على ألا تعيق روسيا كارل الثاني عشر عن العودة إلى السويد، وأن توقع الصُلح معه إن أمكن، وقدم شافيروف وشيريميتيف بشخصيهما ضمانات الالتزام بشروط معاهدة بروت، وبهذه الصورة (كانا رهينتين في الواقع)، توجها إلى الآستانة.

لم تكن شروط الصُلح مرهقة أو مهينة بالنسبة لروسيا وبطرس، مع أنهما ضيعا ما كسباه في حينه بأغلى الأثمان، لكنهما حافظا على الجيش والمدفعية، (فلم تسلم إلى العثمانيين إلا المدافع الموجودة في كامني

زاتون)، كما حافظا على المكاسب في البلطيق، (فلم يتناولها أحد أثناء المفاوضات)، وظلت معلقة مطالب دولت جيري بشأن استئناف دفع الجزية إلى القرم من جانب موسكو.

كان الطرفان راضيين على توقيع الصُلح، ولم يرض عنه كارل الثَّاني عشر الذي كان يأمل في الانتقام من روسيا بمساعدة الآستانة، ففي مساء ١٢ تموز (يوليو)، جاءه رسول من بونياتوفسكي إلى بينديري التي اتخذها مقرًا له بعد فراره من ساحة المعركة في بولتافا. وأبلغوا الملك بوجود شافيروف في خيمة الصَّدر الأعظم، فامتطى كارل ظهر حصانه مهتاجًا منفعلًا، وبعد ١٧ ساعة من عدو متواصل وصل إلى الصَّدر الأعظم، وعندما بلغ المعسكر العثماني رأي من هناك الطوابير الرُوسية على أهبة الاستعداد، وهي تغادر معسكرها مع المدفعية، وسط قرع الطبول.

اشتاط الملك غضبًا، واكتئب أشد الاكتئاب، ودخل على الصَّدر الأعظم صائحًا: لماذا وقعت الصُلح مع القيصر بدوني؟ لماذا تركت الرُوس ينصرفون؟

- بإيعاز من أمير المؤمنين.

وطلب الملك أن يخصصوا له ٢٠-٣٠ ألفًا من خيرة القوات، وعند ذاك يقتاد القيصر الرُوسي أسيرًا، وردّ محمد باشا على الملك المتهور، وذكّره بتجربته اليائسة في محاربي الرُوس:

- لقد جربتهم أنت، و نحن أيضًا رأيناهم، هاجمهم إذا كنت تريد، أما أنا فلن أخرق الصُلح معهم.

وانتهت بالفشل الذريع كذلك محاولة الملك السويدي للتأثير على خان القرن، كان ذاك بوده لو هجم على الرُوس، لكن موقف الصَّدر الأعظم الواقعي منعه من العمليات الاعتباطية، وفيما بعد قال محمد باشا نفسه وهو يكلم شافيروف عن سلوك الملك:

ـ قال باشـد سـورات الزعل والتهديد بـألا أوقع الصلح مـع جلالة القيصر حتـى يتم التصالح معه، هو الملك، وتعاد إليه كل المدن التي أخذت منه (في البلطيق ـ ملاحظة المؤلف).

وقال الصدر الأعظم إنه رد على الملك بالشكل التالي:

ـ شـؤونك لا تعنيني، وقد أقدمت على الصُلح بإيعاز من سلطاني، و يجب عليَّ أن أرافقك بالسلامة كضيف، وأقنع ذاك بأن يترك لك طريق السفر مفتوحًا.

ـ سأشكوك إلى السُلطان.

وقدم شكواه فعلا إلى الآسـتانة عن طريق مخبريه فيها، وأساء كثيرًا إلى الصَـدر الأعظـم الـذي غدا مـن ألد الأعـداء بالنسـبه لـه، وأذاع كارل وبونياتوفسـكي إشـاعات تقول إن الصَّدر الأعظم اسـتلم رشوى كبيرة مـن الرُوس، لكـن الواقع غير ذلك، فبعد خروج الـرُوس من الحصار جيء إلى الصَّدر الأعظم ومستشاريه ببراميل فيها نقود فضية،٣٠٠ ألف روبل، كان وعد بها شافيروف، إلا أن محمد باشا أعادها إلى الرُوس خشية أن ينقل دولت جيري أو بونياتوفسكي خبرها إلى السُلطان.

كان الرضا مـن معاهدة بروت باديًا، ليس فقط على بطرس والساسة الرُوس الآخرين، فقد ابتهجت الأستانة لأنها تمكنت بقليل من الضحايا من اسـتعادة مدينة آزوف، والأماكن الأخرى في أسفل الدون والدنيبر، وعزلت روسـيا عن بحر آزوف والبحر الأسـود، واسـتمرت الأفراح بهذه المناسـبة ستة أيام في الأسـتانة، وصار السُـلطان أحمد الثالث يُلقب بالغـازي، أما بطرس فقد استعرض حصيلة الحملة المؤسفة، ومع ذلك كتب فرحًا في رسالة إلى مجلس السينات:

ـ هـذه القضيـة، رغم الحزن على ضياع الأماكـن التي كلفتنا كثيرا من العمل والخسـائر، آمل أن تكون للناحية الأخرى تعزيزًا عظيمًا، وهي بالنسبة لنا مكسب يفوق التقدير.

ويقصد بطرس «بالناحية الأخرى» الأمور في البلطيق، وهي تسير فعلًا على ما يرام، إلا أن الشعور بالمرارة الشديدة لم يزال... بعد ذلك أمدًا طويلًا، وعندما وصل إلى وارشو، هنأوه بحسن العاقبة والخلاص في بروت، فأجاب معترفًا بصراحة، (ويجب أن نقدر فيه تشدده إزاء نفسه):

- من حسن حظي أنني تلقيت خمسين ضربة بالعصا فقط، وكان يجب أن أتلقى مئة ضربة.

لقد أخذ بطرس درسًا عمليًا لا ينسى في معركة بروت، فإن نسيان الحذر والحيطة والحساب الدقيق كاد يودي به وبالبلد إلى الكارثة، ولم تأت آلام بطرس الشديدة بسبب إخفاقه عبثًا، فقد سهر الليالي، وهو يفكر في الحملة الفاشلة، ويتذكر وصاياه الشخصية، الحكيمة جدًا لجنرالاته:

- النَّصر الدائم أهلك الكثير من الرجال.

- الركض وراء المعركة الشاملة خطر جدًا، لأن الأمور يمكن أن تنقلب في ليلة وضحاها.

وأسف بطرس لأنه وزع قواته أثناء الحملة، حين أرسل الجنرال رينيه لأداء مهمة جزئية، (وقد أداها ذاك على أحسن ما يرام)، وتشكى بطرس في حديث مع السفير الدانمركي:

- لو لم أرسل رينيه مع ٩٠٠٠ فارس في حملة إلى مونتكاني أو مولدافيا لما دخلت في مفاوضات مع العدو مطلقا، ولكنني كنت مع حوالي ٣٠٠٠٠ رجل بدون خيالة تقريبًا، ولذا لم أقدم على الدخول في معركة ضد الأتراك وكان عددهم ١٠٠٠٠٠، وأغلبهم خيالة.

ذلك صحيح، ويسهل الجدل بعد فوات الأوان، والقيصر يفهم هذه الحقيقة تماما، فالوضع أثناء الحصار في بروت كان أكثر تعقيدًا، وعندما مرت الأمور بسلام تنفس الصعداء، وليس من قبيل الصدفة أن تطلق بأمر منه في المعسكر الرُوسي في أعقاب الانسحاب من بروت،

بعد عبور الدنيستر، مدافع التحية، وتقام صلاة الشكر، وليس من قبيل الصدفة أن ذكريات تلك الحملة بعد سنين عديدة تثير فيه مشاعر الألم، فقد كان القيصر عادلًا ومتشددًا إزاء نفسه، فضلًا عن الآخرين.

لم تفت محنة بروت في عضد بطرس، وكعادته دومًا، لم يستسلم لليأس والقنوط، بل انشغل في الأعمال، وهى متجددة بلا نهاية ولا حدود، وعاجله لا تقبل التأجيل، فهو كما كتب إلى عقيلته في آب (أغسطس ١٧١٢، يمسك السيف والقلم في وقت معا، يشرف على تعزيز الجيش، وبناء الأسطول ،وعلى العمليات الحربية، وعلى وضع القوانين الجديدة فيما يخص الحياة المدنية، وكالسابق نجد أيامه مليئة بالأشغال، والأعمال الكثيرة، ومنها الاستمرار في التحويلات الإدارية: تدقيق وظائف السينات، واستحداث الألوية (المتصرفيات)، وتشييد المانوفاتورات، وطباعة الكتب، وتبسيط الأبجدية، وإعمار «الفردوس» وبناء السُفن، وتدريب البحارة وإلخ.

أصدر كاتب مجهول كان يراقب بطرس في عاصمته الشمالية كراسًا صغيرًا في لايبزيج (١٧١٣) بعنوان «وصف سان بطرسبورغ وكرونشتادت في ١٧١٠ و١٧١١»، ولم يخف المؤلف دهشته وإعجابه ببطرس:

- يقضي نهاره في عمل، لا يكل متحاشيًا البطر تمامًا، يستيقظ جلالته في ساعة مبكرة جدًا من الصباح، وقد صادفته أكثر من مرة في الصباح الباكر، يسير على الكورنيش متوجهًا إلى الأمير مينشيكوف، أو إلى الأميرالات، أو إلى مديرية الملاحة، أو إلى معمل الحبال، ويتناول طعام الغداء قبيل الظهر حيثما اتفق، عند هذا أو ذاك، لكنه يفضل الغداء عند الوزراء والجنرالات والسفراء، بعد الغداء يأخذ قسطًا من الراحة زهاء ساعة، حسب العادة الرُوسية، ويباشر العمل من جديد، ولا يرقد إلا في ساعة متأخرة من الليل، ولا يعبأ بلعب الورق والصيد وغيرهما، والتسلية الوحيدة المحببة إليه، والتي تميزه عن جميع الملوك هي الملاحة، ويبدو أن الماء مرتعه الحقيقي، ولا يندر أن يقضي النهار كله في قارب شراعي، أو زورق... وبلغ

به هذا الولع حدًا جعله يتجول في النهر مهما كان الطقس مطيرًا، أو ثلجيًا أو شديد الريح، ذات مرة، عندما تجمد نهر نيفا، ولم تبق إلا بقعة لا يتجاوز محيطها مئة خطوة أمام القصر، راح يمخرها في قويرب جيئة وذهابا.

وحتى الشتاء استمر بطرس في مناوراته على القوارب بعد أن ركبها على الزلاقات والزحافات، وكان يقول:

ـ نعوم على الجليد كيلا ننسى تمارين الملاحة البحرية في الشتاء.

لكن هناك وقتًا للتمارين، (وهي بالمناسبة نافعة أيضًا)، ووقتًا للأعمال الجارية التي تتطلب حلولًا وقررات وتوجيهًا، وكان بطرس مشغول البال بالأمور المتعلقة بالباب العالي وبولونيا، والحلف الكبير وحلفاء روسيا، ففي بلاط السُلطان العثماني استمرت دسائس كارل ومخبريه، وديزالير الذين حاولوا إقناع السُلطان بأن القبض على القيصر وجيشه اسيرين في بروت كان أمرًا سهلًا، وقد مل الجميع من كارل، حتى أن الصَّدر الأعظم رد على استجوابات شافيروف قائلًا بخصوص كارل:

ـ أريد له أن يروح في داهية، لأني أرى الأن أنه ملك بالاسم فقط، وليس لديه ذرة من عقل، فهو كالدابة، سأبذل جهدي كي يرسلوه إلى مكان ما.

إلا إن العلاقات بلغت حد الخلاف الشديد، فالعثمانيون طلبوا إعادة آزوف وفقًا لمعاهدة بروت، وتفكيك استحكامات تاغانروغ وكامي زاتون، أما بطرس الذي التزم بالحذر والحيطة من جديد بعد أن فقدهما في مولدافيا فقد طلب بطرد كارل، وفي آب (أغسطس) ١٧١١، في أعقاب معركة بروت أوعز إلى ابراكسين:

ـ لا تسلموا آزوف، ولا تدمروا تاغانروغ حتى أكتب لكم، فالأتراك يريدون أن يثير الملك السويدي القلاقل في بولونيا ويبقى في حرب معنا، حتى يكونوا هم اطمئنان وأمان، أما نحن فنفكر على النحو التَّالي: لن

نسحب قواتنا من بولونيا وفق المعاهدة ما لم يصل الملك السويدي إلى دياره بالفعل.

وهكذا نرى بطرس مهتما كل الاهتمام بمصالح روسيا، لأن أحدًا لا يستطيع أن يتكهن بتصرفات كارل الذي يمكن أن يؤيده الكثيرون في أوربا، وتلك التصرفات قد تكلف روسيا غاليًا، وأسفرت الخلافات مع الأستانة عن تدهور العلاقات من جديد، ففي ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧١١، فسخ العثمانيون معاهدة بروت، وأعلنوا الحرب على روسيا، وطرحوا مطالب جديدة أكثر قسوة، فلم يكتفوا باستعادة آزوف، والقلاع التي تم تفكيكها، بل أكدوا على عدم الادعاءات فيما يخص الملك السويدي، والأهم أنهم طالبوا بتسليم أوكرانيا إلى الإمبراطورية العثمانية، ولوحظت في ذلك كله دسائس وأموال ديزالير، ورئيسه «الملك الشمس» لويس الرابع عشر، ومع ذلك كان السُلطان، وحاشيته يفهمون بأن بلادهم عاجزة عن محاربة روسيا، وقد اطلعوا شافيروف صراحة على ذلك، وحاولوا إقناعه بأن يقدم على تنازل ما مهما كان ضئيلًا «على هذه الضفة أو تلك من الدنيبر حتى يفرح السُلطان»، وانتهت المفاوضات الطويلة (في ٥ نيسان ـ أبريل ١٧١٢)، بتوقيع معاهدة صلح جديدة، وساعد في توقيعها سفيران هما الإنجليزي ساتون، والهولندي كولير، وقد فعلا ذلك لمقاومة دسائس «نائب السُلطان» ديزالير، وساعدا شافيروف بإخلاص، وقد أشاد هذا الأخير بمساعدتهما في تقاريره إلى بطرس:

ـ لولا السفيران الإنجليزي والهولندي لما استطعنا أن نكتب شيئًا إلى أي شخص وإلى جلالتكم، لأنهم لم يسمحوا بمجيء أحد إلينا، ولا بخروج أحد من عندنا، وكان من المحتمل أن تبدأ الحرب، ويزجوا بنا في أقسى سجن بأقسى عقاب، السفير الإنجليزي رجل ذكي ماهر، وقد بذل جهده ليل نهار، بالرسائل والمكالمات، لإقناع العثمانيين بحفظ السلام، وقد كلمهم بحدة فزعلوا عليه وصاحوا به، وما كان عبد جلالتكم المطيع بقادر على أن يفعل أكثر مما فعل، فبعد انتهاء القضية كتبت بيدي مسودة

المعاهـدة باللغة الإيطالية، وبذلت جهيد لتأتـي صياغتها غير متعارضة مع مصـالح جلالتكم، وتردد السـفير الهولندي على الصَّدر الأعظم سـًرا عدة مرات، وحاول إقناعه على انفراد، وجعله يميل إلى ما فيه خيرنا، لأنه نفسه يتكلـم التركية، ومع أننا سـلمناه المكافأة الـتي وعدناهما بهما، فمن الضروري إرسال فرسان يجلبون ماسًا ثمنيًا، وكذلك فراء السمور الجيدة.

السـفيران اللـذان حـاولا في البـاب العالـي أضعـاف مواقع فرنسـا خصم بريطانيـا وهولنـدة، لم يظلا طبعا بـدون «مكـافأة»، فقـد ارتاح بطرس كثيرًا، عندما ورده نبـأ معاهدة الصُّلح الجديدة، مع أنها تضمنت مطالب أقسى بخصوص سحب القوات الرُوسـية من بولونيا في غضون ثلاثة شهور، ولا يجـوز أن تدخـل تلك القوات بولونيـا من جديد إلا إذا قـام كارل الثاني عشـر بأعمـال عدائية، وفي ٢٠ آير (مايو)، بعثوا إشـعار مـن بطرس بإبرام المعاهدة إلى الصَّدر الأعظم يوسـف باشـا الذي حل محل محمد باشا بعد أن نحى من منصبه، وأودع السجن.، وبمناسبة توقيع الصُّلح أطلق العثمانيون أخيرا السفير الرُوسي تولستوي من غياهب سجن الأبراج السبعة الرهيب، وقد أمضى في السـجن ١٧ شـهرًا، كان في سـبعة منها مريضًا جدًا، ولم يسمح الأتـراك حتـى بعيادة الطبيب له، وكان السَّـفير المريض يشـتري الأدوية «سـرًا.. حيث تصله بصورة غير مباشرة من يد ليد»، وقد تشكى في رسالة إلى غولوفكين قائلًا:

- أنفقـت آخـر ما أملـك... زد على ذلك أنهـم يهددونني كل يـوم بالآلام والتعذيب.

وفي بداية حزيران (يونيو) ١٧١٢، غادرت القوات الرُوسـية بولونيا بإيعاز مـن بطرس، وظلت قلعـة ايلبينغ فقط في يد روسـيا لتأمين المواصلات مع القـوات الرُوسـية المرابطـة في بوميرانيـا، وكـانت تـراود السُـلطان أحلام مستحيلة في أن تغدو بولونيا في آخر المطاف، كما وعد الملك السويدي في حينه، ولاية للإمبراطورية العثمانية تقدم لها سـنويًا جزية ضخمة، لكن السُـلطان الغـازي، ظل الله علـى الأرض، تأكـد مرارًا وتكـرارًا من عدم

جدوى الضيف الكبير وسخفه ومخططاته الخيالية، ووعوده الفارغة، وبسبب خيبة أمل السُلطان في الملك السويدي أمر بتقليص المبالغ المخصصة للإنفاق عليه، فغرق هذا الأخير في مزيد من الديون، ووقع اتفاقية مع فرنسا: فالطرفان الساميان المتعاقدان يخططان للعمليات الحربية بين الإمبراطورية العثمانية، وروسيا، ويتقاسمان الأراضي البولونية والرُوسية، وقد بلغ نبأ هذه الخطوات الدبلوماسية بهو السُلطان العثماني، وعلم بها شافيروف أيضًا، وراح يوسف باشا يهدئ من روع الدبلوماسي الرُوسي:

- لا تخش أن يقوم الملك السويدي الأن بشيء ما هنا، رغم كل جهوده ومداخلاته، فهو بسبب ضجره كشخص أجلس على خازوق، تارة يقدم على هذه الفعلة وتارة على تلك.

وكيلا يثير بطرس قلق الأستانة، أوعز بسحب كل الوحدات التي كانت لا تزال ترابط في بولونيا، بما فيها الوحدات الموجود في أيلبينج، ولكن الحرب على روسيا أُعلنت من جديد في ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٧١٢، واعتقل الدبلوماسيين الرُوس، وطالب الصَدر الأعظم الجديد سليمان باشا ثانية، بإيحاء من ديزالير نفسه، بأن تتخلى روسيا عن أوكرانيا، وكذلك عن كل مكاسبها في البلطيق، وبأن يعاد ستانيسلاف ليشينسكي إلى العرش البولوني.

ولم يذعن بطرس لهذا التهديد السافر، فأمر جيش شيريميتيف المرابط في ضواحي كييف بأن يكون على أهبة الاستعداد، و يجهز ذخيرة ومؤونة لسبعة أشهر (وليس لأسبوع واحد كما كان الحال أثناء حملة بروت)، وظلت مطالب السُلطان دون جواب، فصب جام غضبه على كارل الثاني عشر، ومستشاريه بونياتوفسكي وديزالير وسواهما، فهم الذين زعموا بأن روسيا سترتعب وتتراجع دون حرب، ثم إن السفير خومينتوفسكي وصل من بولونيا إلى الأستانة، وحاول استمالة السُلطان إلى التصالح مع روسيا، فإن أغسطس الثَّاني وبولونيا لا يريدان أن تتحول الأراضي البولونية والسكسونية إلى مسرح للمعارك والتدمير، وبعد إثارة الصخب والتهديد

(صدور مراسيم التجنيد ووصول السُلطان إلى أدرنة، حيث تتحشد القوات عادة قبيل الغزوات)، هدأ العثمانيون بسرعة، فكتب شافيروف إلى بطرس في مطلع عام ١٧١٣، يهدئ من روعه:

- العثمانيون مغتمون، ويشعرون بالخجل، لأنهم أعلنوا الحرب، ويعربون في الأحاديث عن دهشتهم، لعدم إرسال جلالتكم أحدًا إليهم، لاستئناف مفاوضات السلام.

ولم يكن بطرس يفكر في إرسال مندوبين جددا، ففي الأستانة يوجد شافيروف وتولستوي وشيريميتيف الابن (وإن كانوا في السجن)، والعثمانيون متحيرون، لا يعرفون كيف يتخلصون من ملك السويد، الذي يثقل على الجميع، وقد غدا قذي في العين، وحتى خان القرم دولت جيري نصيره المتحمس له حتى الفترة الأخيرة صار يكرهه أشد الكره، وبأمر من السُلطان قرروا طرد كارل بالقوة، وفي مطلع عام ١٧١٣، شهدت بنديري «القلابالغ»، الشهير حيث حوصرت القلعة، واقتحمتها القوات العثمانية في معركة حقيقية شارك فيها عدد كبير (١٢ ألف شخص!)، وقادها الخان والباشا، ووصف شافيروف ببلاغة أحداث «القلابالغ»، المفاوضات بين العثمانيين، والملك الذي طالبوا برحيله من بلادهم، وتعنت العثمانيين والملك الذي طالبوا برحيله من بلادهم، وتعنت الضيف الكبير ومقاومته مع مئة جندي، وبضعة مدافع ضد جيش كالم، ولما كان السُلطان قد أوعز بعدم إصابة الملك شخصيًا بأضرار فإن هذا «الجندي الباسل والأول في العالم»، على حد تعبير شافيروف، قد قاتل حتى اللحظة الأخيرة، وفقد العثمانيون خسائر كبيرة بالأرواح (حوالي ٦٠٠ قتيل)، بالإضافة إلى الجرحى، ومع ذلك وقع الملك أسيرًا في أيدي الانكشارية، وقد فقد أربعة أصابع، وشحمة الأذن، وأرنبة الأنف، وانكسرت ساقه، وسرعان ما غادر خفية البلد الذي آواه، واستضافه لكنه جازاه بنكران المعروف بدل الامتنان، وعاد من خلال المجر والنمسا وألمانيا إلى بلده المدمر البائس المنكود، فقد تضررت السويد من الملك أكثر من أي مكان، غاب عن بلده

خمسة عشر عامًا، وعاد إليه برفقة شخص واحد، أما الجيش المكون من ٦٠ ألفا، فقد ظل جثثا في سوح القتال في روسيا والبلدان الأخرى.

وفي تلك الأثناء أجرى شافيروف والدبلوماسيون الرُوس الآخرون الذين أطلق سراحهم المفاوضات من جديد، ودافعوا عن مصالح روسيا، ورفضوا مطالب الجانب العثماني الجديد (دفع الجزية للقرم وتسليم أراض جديدة لإقامة أنصار مازيبا فيها)، وفي ١٣ حزيران (يونيو(١٧١٣، وقعت أخيرًا معاهدة جديدة كررت شروط المعاهدتين السابقتين مع بعض التنازلات الجديدة، وأمكن الحفاظ على السَّلام، والاستقرار في الجنوب، واتجه بطرس بأنظاره إلى الشمال من جديد.

ودعت الحاجة هنا باستمرار إلى تسوية النزاعات بين تكتلات الإقطاعيين المتنافسة ودرء سوء تصرف الجنود والضباط الرُوس، وخصوصًا القوزاق الذين يتشكى الأهالي منهم، واستمر أذى دسائس وخيانات أغسطس الثاني، وكانت القوات الرُوسية المرابطة في بولونيا تدافع عنها في الواقع دون دسائس جيرانها الشرسين، في حين يطالب ساستها بسحب القوات الرُوسية، تارة وباستعادة كييف، وسائر الأراضي الرُوسية تارة أخرى، وبتسليم ليفلانديا مع ريغا تارة ثالثة، أما بطرس فقد أبدى حكمة وصبرًا وأوضح لهم إن وجود القوات الرُوسية يحمي بولونيا من السويديين والعثمانيين، وأن ليفلانديا إذا سلمت إلى بولونيا تقع حالًا في أيدي السويديين، علمًا بأنه لا يذكَّرهم بأن أراضي الدولة الرُوسية الكييفية السابقة مناطق أوكرانيا الواقعة على الضفة اليمنى من الدنيبر وبيلوروسيا، لا تزال ترزخ تحت الاحتلال البولوني، وأن أهاليها الأرثوذكس يعانون الأمرين من جانب الكاثوليك.

واتخذ بطرس إجراءات فيها كثير من القسوة لتعزيز الانضباط في القوات الرُوسية المرابطة في بولونيا، وتضاءلت شكاوى البولونيين، زد على ذلك أنهم صاروا من زمان قلقين أكثر بسبب وقاحة جنود أغسطس الثاني السكسونيين، فهم شأن جميع المقاتلين المنحوسين الأوربيين

الغربيين يتصرفون بمنتهى الخشونة والفظاظة، ويعاملون بقسوة وصلف أهالي الأماكن التي يرابطون فيها، وينهبون السُّكان المحليين بلا حياء، ويسلطون عليهم مختلف أنواع العنف، وأبلغ الجنرال الرُوسي دولغوروكي من بولونيا بطرس الأول في عام١٧١٤، قائلًا:

- في بولونيا، يا صاحب الجلالة، اضطراب كبير، ويقال إن عدد السكسونيين المرابطين في بولونيا وليتوانيا حوالي ٣٠٠٠٠ رجل، وهم يعاملون البولونيين بمنتهى الكبرياء، وهذا لا يعجب البولونيين لإنفتهم واعتزازهم بالنفس... البولونيون غاضبون جدًا، وأعتقد، على قدر معرفتي بهم، أن الفتنة ستنشب بينهم، ونرى الآن أن المعيشة البولونية لا تطاق، ولن يتحملوها، فقد غدوا بؤساء لحد لا يصدق.

بالفعل، بدأت في البلاد فتنة حقيقية، فقد طالب البولونيون بأن يغادر السكسونيون البلد، وطلبوا من الرُوس مساعدة في تخليصهم من اللصوص، إلا أن أغسطس لم ينصت إلى توصية المقيم الرُوسي، داشكوف، ورفض سحب جنوده إلى سكسونيا، زد على ذلك أنه طلب أن يسمح له القيصر بنقلهم إلى ليفلانديا التي يحتلها الرُوس، كان الملك وفيلدمارشاله فليمينغ يُشجّعان في الواقع رجالهما السكسونيين على ابتزاز البولونيين بالتنكيل والغرامات، ولذا يقارنهم البولونيون مع الرُوس، فيفضلون هؤلاء الأخيرين بالطبع، وأبلغ السَّفير الرُوسي الجديد دولغوروكي القيصر بطرس، بما يلي:

- لم تكن قواتكم تحظى في بولونيا بثقة كالتي تحظى بها الأن، فلم أسمع من أحد شكوى، كل ما أسمعه هو الامتنان لأن الجنود يقتاتون في الطريق دون أي إزعاج للأهالي.

وفي كافة أرجاء بولونيا وليتوانيا اندلعت انتفاضات ضد السكسونيين، وتعرضت فصائلهم لهجمات متكررة، وطلب البولونيون من بطرس أن يتوسط بينهم وبين أغسطس، في البداية مانع الملك، لكنه سرعان ما

وافـق، فقد فهم أنه يمكــن أن يحرم من العرش البولونــي، وفي آذار (مارس) ١٧١٦ عقد بطرس في غدانسـك اجتماعًا لوزرائه، والوزراء السكسونيين، وحضـر الاجتمـاع أغسـطس وممثلـوا «التكتـلات» البولونية، وسـلّموا إلى الملـك «مذكـرة الإجحاف»، وهــي قائمة بكـل التجـاوزات والتصرفات الخيانيـة والإهانات. ولم يخف بطرس غضبته. فبالإضافة إلى التجاوزات في بولونيا اتضح أن أغسـطس ينوي الاستفادة من توسط فرنسا لتوقيع صلح انفـرادي مع السـويد، فالملـك المرائي ظل كما كان عليـه، والأكثر من ذلك أنه وعد بموجب معاهدة مع فرنسا (١٧١٤)، بأن يعيد إلى كارل الثّاني عشـر كل الأراضي التي احتلتها روسـيا، صحيح أن كارل الذي بعث إليه أغسـطس مندوبين للمفاوضات منـذ أن كان في بنديـري (مولدافيا)، لم يقبل اقتراحاته مع أن أغسـطس كان مسـتعدًا لخيانة جديدة، وقد حاول أن يؤثر على السُـلطان العثماني ليدفع الباب إلى محاربة روسـيا التي يريد حاكمها، على حد مزاعم أغسـطس الدنيئة، أن يسـتولى على الأسـتانة، وأخيرًا طرح فكرة التحالف الهجومي بين بولونيا والإمبراطورية العثمانية والسويد ضد روسيا.

كان انصار كتلة سـاندومير البولونيون المناهضون لاغسطس بشدة مسـتعدين للتخلص منه, وقد رشـحوا آخرين لاعتلاء عـرش بولونيا، إلا أن القيصر الحذر البعيد النظر لم يلتفت كالسَّابق إلى تصرفات الملك العدائية، وذلـك حفاظًا على الحلف الشَّـمالي من الانهيـار، ورغبة في إنهاء الحرب مع السـويد ، وعدم تأزيم الموقف في أوربا على صعيد السياسة الخارجية، ولذا أصـر على إبقـاء الوضـع في بولونيا كما هـو (أي بقاء أغسـطس ملكا لبولونيـا)، وتوقيع اتفاقية بين البولونيين وملكهم الألماني، وبفضل جهود دولغوروكــي وقعـت الاتفاقيـة في ١٧١٦، ونصَّـت الاتفاقيـة علـى عودة السكسـونيين إلى وطنهـم وتقليل الجيـش البولونـي إلى ١٨ ألف جندي، والجيـش اللتوانـي إلى ٦ آلاف، وبالنتيجـة ازداد تأثير بطرس على الشـؤون البولونية، وأمكـن شـل تدخل الدول الأوربية الأخـرى، ومن مناقب القيصر الرُوسـي يتجاوز الإهانـات والطموحـات الشـخصية، والحكومية ويبدي

في جـو الفتن والنزعـات والفوضى المخيم على بولونيا قابليات دبلوماسـيـة مدهشة، وهدوءًا ورباطة جأش، وصبرا وبعد نظر.

وكانت روسـيا حتى ذلـك الحين قد حققت انتصـارات جديدة كبيرة في البلطيق، ولم تجر العمليات الحربية في قسمه الشرقي، لأن العدو كان قـد طرد مـن هناك بالكامل، بل جرت في قسـمه الجنوبـي، في بوميرانيا، وقاتلـت ضد القـوات السـويدية هنا جيـوش الحلفاء الرُوس والدانمركي والسكسـوني، وفي مطلـع عـام ١٧١٢، بعد مرور سـتة أشـهر على إخفاق الحملـة في بـروت، حاصر الحلفـاء مدينتي شـترالزوند وفيسـمار، ودحروا السويديين، وأسروا ألفين من جنودهم.

وكتـب بطـرس عن هـذا النصـر مسـرورا إلى أعضـاء مجلس الشـيوخ (السينات):

- يسعدني أن أكتب إليكم هذا العام أول رسالة من هذا النوع.

الا أن الحلفاء أسـاءوا التصرف فيما بعد، فجاءت عملياتهم غير منسـقـة، وتألم بطرس لأن ملك الدانمرك لم يرسـل بعد المدفعية التي وعد بها لقصف القلعتـين المحاصرتين، وبدون تلك المدفعيـة لا يمكـن احتلالهما، وضغط بطـرس لسـحب قواتـه مـن بوميرانيـا، لحماية بلده مـن هجوم السـويديين المحتمل من خلال الخليج الذي تجمدت مياهه، وهدد أغسـطس باسـتدعاء قواته والحال هذه، وتمكـن بطرس ومسـاعدوه من إيجاد حل وسـط، فبقى في بوميرانيـا الفيلـق الدانمركي المكون مـن ٦ آلاف مقاتل، إلا أن كلا الملكـين أجريـا خفيـة عـن القيصر مفاوضـات الصُلـح الانفـرادي، وفي حزيران (يونيو)، وصل القيصر إلى بوميرانيا والتقى مع أغسطس، وتكرر مـا كـان قد حدث مرارًا: بطرس يتظاهر بأنـه لا يعرف حيل الملك الجديدة، بينمـا يتملـص ذاك ويكذب، ويناقشـان خطط العمليات المشـتركة، وعندما وصل بطرس إلى ضواحي شـتيتين لم يخف خيبة أمله، فالخلافات بـين الحلفـاء، وعدم توفر المدافع(لم تصل إلى الدانمـرك نهائيـا)، لا تهيئ الإمكانية للاسـتيلاء على المدينة، ولم تسفر مباحثاته مع الفريق البحري

الدانمركي، ولا الرسالة التي بعثها إلى الملك عن نتيجة، اكتئب القيصر، فهو غير راض عن اللقاء مع الفريق البحري:

- أنا متأسف جدًا جدًا، لأن الوقت يمضي في هذه المجادلات.

وتضمنت رسالته إلى الملك ملامة، وعتابًا:

- جئت إلى هنا بنفسي غير عابيء بصحتي من أجل مصالحنا المشتركة، لكن قواتي تقف مكتوفة الأيدي لعدم وصول المدفعية الموعودة.

- إذا لم تنفذوا طلبي هذا فسأكون في حل أمامكم، وأمام العالم كله لأن هذه الحملة أخفقت ليس بسببي.

وأعلن بطرس غاضبًا بأنه سيسحب قواته من بوميرانيا، ثم خف أوار غضبه، فالحرب ضد السويد يجب أن تستمر حتى النهاية على أية حال، فما العمل إذا كان حلفاؤه من هذا النوع؟ ومن جديد بعث بطرس رسالة إلى كوبنهاغن عرض فيها على الملك خطة العمليات الحربية، وأكد له قائلًا:

- ليست لي مصلحة خاصة لا في هذا المكان ولا ذاك، لكن ما افعله هنا إنما أفعله لجلالتكم.

ومع ذلك لم تصل المدافع من الدانمرك، وظلت القوات تراوح في مكانها عبثا، وأدرك بطرس أن روسيا يجب أن تعتمد على نفسها هذه المرة أيضًا، وأنه سيقوم قريبًا بكل ما يلزم لذلك، أما الآن فقد توجه إلى كارلسباد للعلاج بالمياه المعدنية، ولم يكشف بطرس عن انفعاله وتذمره من الحلفاء، فهو بحاجة إليهم على أية حال مهما كانوا، وحدَّثه مينشيكوف في ضواحي شتيتين، ولابد، عن الدانمركيين وأسهب في ذمهم، لكن بطرس هدأه قائلًا:

- ينبغي معاملة البلاط الدانمركي بأكبر قدر ممكن من الرقة، فقد يغضبون هناك إذا قلت لهم الحقيقة كاملة.

ـ الحقيقة أن تصرفاتهم سيئة جدًا، ولكن ما العمل؟ لا داعي لإثارتهم، لأنهم يواجهون السويد في البحر، ولو كانت لدينا قوات كبيرة في البحر لاختلف الأمر، وطالما لا توجد لدينا مثل تلك القوات، فيجب أن نتزلف إليهم، مع أن ذلك ممقوت، كيلا نبعدهم عنا.

وعندما قدم القيصر إلى مينشيكوف دروسًا في ضبط النفس والتقاليد الدبلوماسية، كان على ما يبدو يأمل في الأسطول الدانمركي، مع أنه لا ينسى بناء أسطوله لأجل العمليات المرتقبة في البلطيق.

وأمضى بطرس بعض الوقت يتعالج في كارلسباد، ويتجول في المدينة، ويهتم بكل ما يراه، ذات مرة كان يسير جنب الرُوس (والكل يعرفونه هنا)، يتباهى بأنه يفعل كل شيء بنفسه، ولكننا نعتقد أنه لا يجيد بناء منزل، فارتقى القيصر دون تردد سلالم الأخشاب، وأخذ المسيعة، وظل يعمل طول النهار بعرق الجبين في طلاء الجدران، وأثنى عمال البناء على عمله، «كان بطرس الأكبر حجارًا مع الحجارين»، نقشت هذه الكلمات بعد قرنين من الزمان على لوح مرمري مثبت على جدران المنزل الذي، اشترك القيصر الرُوسي في تشييده.

وعاد بطرس من كارلسباد إلى بوميرانيا، وأبلغه مينشيكوف أن القوات السويدية بقيادة الجنرال ستينبوك غادرت شترالزوند، وينتظر أن تنشب معركة بينها وبين الدانمركيين والسكسوفيين، واقترح القيصر على حلفائه في الدانمراك وسكسونيا ألا يشنوا العمليات الحربية حتى تصل المساعدات الرُوسية، لكنهم لم يسمعوا نصيحته، فدخلوا المعركة وتكبدوا هزيمة ماحقة، جرى ذلك في العاشر من كانون الأول (ديسمبر)، وفي كانون الثاني (يناير) من العام التَّالي، ١٧١٣، وصل الجيش الرُوسي لنجدتهم، ودحر قوات ستينبوك بالكامل في معركة فريدريكشتادت، فمع أن ستينبوك طوق معسكره بحاجز مائي، (أوعز إلى رجاله بتحطيم بوابات القناطر، وإنشاء استحكامات على السدود)، قام الجنود الرُوس بقيادة بطرس بهجوم حسب خطة مرسومة، (رفض الحلفاء الاشتراك في

الهجوم متصورين أنه محكوم عليه بالفشل، ولا نفع فيه)، وفر السويديون دون أن يقاتلوا، وفقدوا ٣٠٠ أسير، ولم يتخلص الفيلق السويدي في قلعة تونينغين إلا بفضل المياه التي فاضت، والأوحال الكثيرة بسبب حلول الدفء، إلا أن حصيلة العمليات الحربية في عام ١٧١٢، لم ترض بطرس:

- راحت الحملة عبثا.

ولذا أخذ يعد لحملة العام التالي بمزيد من الهمة، والنشاط، وكتب عن ذلك في ١٦ آذار (مارس):

- نحن اليوم مسافرون إلى بطرسبورغ، ولن نقضي الوقت هناك في بطر.

لقد قرر بطرس أن يشن العمليات الحربية في فنلندة العائدة آنذاك إلى السويد، كان على ابراكسين أن ينظم الحملة إلى هناك بأمر من القيصر في عام ١٧١٢، إلا أن الوقت لم يتسع لشنها، فنزل الجيش الرُوسي من الزوارق المجدافية على الساحل الفنلندي، ولم ينفذ سوى عملية استطلاعية، وعلق بطرس على الحملة المرتقبة أهمية كبيرة، فالسويديون يستلمون الكثير جدًا من فنلندة، إلى حد الأغذية والحطب، ولذا يرى القيصر أن الاستيلاء عليها هام جدًا لعدة أسباب، وفي مقدمتها إرغام السويد على القبول بالصُلح:

- أول شيء هو توفير ما يمكن التنازل عنه أثناء الصُلح الذي بدأ السويديون بالكلام عنه، والثاني هو أن هذه المقاطعة كالأم المرضع بالنسبة للسويديين، فهم يحصلون منها على الماشية وسواها، بل وحتى الحطب، وإذا استولينا عليها تغدو رقبة السويد رخوة سهلة الانصهار.

- علمت بحق من إناس مخلصين أننا إذا وصلنا إلى آبو سيضطر السويديون إلى الموافقة على الصُلح. لأن كل أغذيتهم من فنلندة.

وفي نيسان (أبريل) ١٧١٣ أنزل أسطول الزوارق المجدافية على السَّاحل الفنلندي فيلقا من ١٦ ألف شخص، وكان بطرس يقود طليعة الإنزال،

وسلم السويديون هيلسينغفورست وبورغو دون أن يدخلوا في معركة، وفي ١٦ آيار (مايو) كتب بطرس إلى زوجته عن ذلك بصيغة مزاح:

- أبلغك بأن السَّادة السويديين يخجلون منا كثيرًا، لأنهم لا يريدون أن نرى وجوههم في أي مكان.

وفي ٧ حزيران (يونيو) ترك بطرس القيادة إلى ابراكسين، وعاد إلى كورنشتادت، وبلغه هنا نبأ مفرح من مينشيكوف، فإن ستينبوك وأكثر من ١١ ألف سويدي استسلموا للحلفاء في معركة تونينغين، كان بطرس يعتقد أن له علاقة مباشرة بهذا النصر الذي مهد له الانتصار في فريدريكشتادت قبل عام، ولذا طلب من الأمير الحاكم أن يمنحه ترقية:

- لما كان مرسومكم (الموقع من قبل رومودانوفسكي في ٧ آذار مارس ١٧١٢- ملاحظة المؤلف) الصادر إلى الفيلدمارشال جنرال شيريميتيف حول تبديل رتبتي قد ظل دون أن أعلن عنه؛ بسبب الهزيمة أمام العثمانيين (في حملة بروت- ملاحظة المؤلف)، فيمكن أن تكون لي علاقة بهذا النَّصر، لأن القوات الرُوسية التي كنت أقودها (وهذا أمر يعرفه معاليكم من زمان)، هي بالذات التي أرغمت العدو على العودة إلى تونينغين بعد أن دحر القوات الدانمركية.

وفي النِّصف الثَّاني من العام المذكور استولت القوات الرُوسية في فنلندة على مدينة آبو، كما استولت على شتيتين في بوميرانيا، وتم طرد السويديين من الجزء القاري إلى ما وراء البحر، وغدا قسم كبير من أراضي فنلندة في يدي بطرس، كانت السويد تحتضر، لكنها لم تخرج من الحرب بسبب تعنت ملكها، صحيح أنها كانت لا تزال تمتلك أسطولًا قويًا وهو، على حد تعبير بطرس، «آخر أمل» للسويد، وكان يتعين حرمانها من هذه المزية الأخيرة.

في حوض بناء السُفن التَّابع لمديرية الملاحة كانت السُفن الجديدة تدشن من عام لأخر من عهد تأسيس بطرسبورغ، ونما الأسطول الرُوسي في

البلطيق، لكن الأسطول السويدي ظل سنين طويلة أفضل منه، ولذا لم يكن بطرس يكلفه بعمليات نشيطة، واكتفي بمهماته الدفاعية إلى حين من الزمان، إلا أن بناء البوارج المزودة بعشرات المدافع، كان في ازدياد مستمر بأمر من القيصر، وفي ١٥ تموز (يوليو) ١٧١٣، كتب القيصر إلى شافيروف في الأستانة.

- أسطولنا يزداد والحمد لله، ولدينا الأن ١٣ بارجة الواحدة منها مزودة بخمسين مدفعًا وأكثر، وننتظر عددًا أكبر، النجاحات في هذا المجال واضحة للعيان، لكن القيصر يريد المزيد:

- لسنا أقوياء من حيث السُفن الكبيرة.

وأوفد بطرس رجاله إلى الخارج لشراء السفن، وكان يقضي في كرونشتادت أسابيع كاملة يدرب البحارة والضباط على قيادة السفن، وأسفرت كل تلك المجهودات عن الثمار المنشودة، فالأسطول الذي بُني في البلطيق لعب دورًا كبيرًا أثناء الإنزال في فنلندة (١٧١٢-١٧١٣)، وفي تزويد القوات المرابطة هناك بكل ما تحتاج إليه، وفي ٢٧ تموز (يوليو) ١٧١٤، دحر الأسطول الرُوسي عمارة سويدية كبيرة عند رأس هانكو، وكانت العمارة تتكون من ١٦ بارجة و٨ زوارق شراعية، وخمس سفن أخرى، في البداية شنت الطليعة الرُوسية بقيادة بطرس ميخائيلوف (القيصر) هجومًا على الفرقاطة «ايليفانت»، وتسع سفن أصغر منها. ورغم تفوق السويديين من حيث عدد المدافع (١١٦ مدفعًا مقابل ٢٣ مدفعًا روسيًا) تقدمت السُفن الرُوسية في هجوم جرئ أدى إلى اشتباك بالسّلاح الأبيض، وفيما بعد أعرب بطرس عن إعجابه ببسالة بحارته:

- يعجز المرء في الحقيقة عن وصف بسالة رجالنا، من ضباط وبحارة.

ووقعت فصيلة كاملة بقيادة الفريق البحري ايرينشيلد في الأسر بأيدي الرُوس، وبسبب الهدوء التام في البحر لم تتمكن السُفن الشراعية الأخرى في العمارة من نجدة الفصيلة.

كان هذا النصر، البحري هذه المرة، لا سيما وأنه تحقق في البلطيق، قد أدهش أوربا كالرعد في وضح النهار، واجتاح الذعر استوكهولم، فغادرت حاشية الملك العاصمة على عجل، وشاهد أهالي بطرسبورغ في ٩ أيلول (سبتمبر، السُفن الرُوسية والسويدية التي وقعت في الأسر، وهي تدخل نهر نيفا، وجاب شوارع المدينة المنتصرون السعداء مع الغنائم والأسرى، وبينهم آمرهم ايرينشيلد، واستقبل أعضاء مجلس الشِّيوخ القيصر بطرس، وبعد بضعة أسئلة رحب به الأمير رومودانوفسكي قائلًا:

- مرحبا أيها الفريق البحري.

على هذه الصورة منح بطرس رتبة جديدة، وزيادة في الرَّاتب الذي كان يستلمه بانتظام، ويوقع في قوائم الرواتب، وكان الفريق البحري الجديد محقًا تمامًا عندما قارن النصر في معركة هانكو بالنصر في معركة بولتافا، حقا، فإن أمجاد السِّلاح الرُوسي عمت البحر فضلًا عن البر، وحدث ذلك في بحر البلطيق الذي كان بطرس وكثيرًا من الرُوس يحلمون به من زمان.

وبعد هذه الانتصارات التي افرحت الفريق البحري الجديد تعرض لضربة شديدة.

كان بطرس الذي أغدقت عليه الطبيعة مواهب جمة، قد حقق الكثير في حياته، وأنجز الكثير لأجل روسيا، فقد كسب الانتصارات في سوح الوغى وبلغ النجاح في بناء الدولة. لكنه واجه أمورا أخرى أيضا كالهزات أثناء الانتفاضات الشعبية، والهزائم في الفتوحات، ولعل من أشد ضربات المصير التي تعرض لها تلك الضربة المرتبطة بحياته العائلية، ومصيبته كأب.

فالطلاق من زوجته الأولى يفدوكيا لوبوخينا، وحياته مع زوجة الثَّانية يكاترينا في البداية بدون عقد زواج، ومن عام ١٧١١، بزواج شرعي، وعلاقاته الغرامية الكثيرة مع أخريات، وأطفاله من زوجته الأولى والثانية كل ذلك دليل على أن بطرس بطبيعته شخص مدلل متسلط، لا يعرف

الهدوء والسكون، كان قد كره زوجته الأولى، وشعر بالحب والحنان لزوجته الثانية التي هي غسالة من منطقة البطليق، وظل غرامه بها باقيًا بمر السنين، بل كان يزداد أكثر فأكثر، وأنجبت له ابنتين لكنه ظل أمدًا طويلًا بدون صبي يرث عرشه، وكانت زوجته الأولى التي ينفر منها قد وضعت طفلًا ذكرًا في ١٨ شباط (فبراير) ١٦٩٠، وعندما ترعرع الصبي الكسي علق بطرس كل آماله عليه.

عندما ولد الكسي كان بطرس نفسه شابًا لم يبلغ الثامنة عشرة، منهمكًا باللهو والمرح والاهتمامات الأخرى المفهومة في مثل سنه، كان مشغولًا على الدوام، وكان يفر من حجرته كلما سنحت الفرصة، فلم يكن ميالًا إلى زوجته يفدوكيا، وقد ترعرع الصبي في رعايتها، وكان لابد أن يتأثر بجو النفور من أشغال والده وتصرفاته، ذلك الجو الذي نشأ في حاشية الأم بما تتميز به من تمسك بالعادات القديمة، والمعيشة الراكدة، وكثرة المتزلفين والرهبان والأقزام وقارئات الفأل، وعندما كبر صار، شأن أمه، يشجب ويستنكر تردد والده على حي العجم، وصداقته مع الأجانب، وإخلاله بالعادات الرصينة، والطقوس القيصرية القديمة. وترك أثرا شعور الغيط عند الابن والأم، اللذين أُهينا من أجل الغريمة، ومحاسيب القيصر من روس وأجانب.

وتعلم الكسي دون أن يبذل جهدًا يُذكر، وجاء تعليمه بعيدًا عن المطلوب.

ترعرع ولي العهد في بريوبراجينشكويه بضواحي موسكو دون رعاية تذكر، ودون إشراف تربوي، وقد تعلم بعض الأشياء بالطبع، ولكنها قليلة، فقد أتقن الألمانية، مثلًا، وألم بالفرنسية على نحو أسوأ، لكنه لم يفهم عمليات الحساب الأربع إلا في الثّامنة عشرة من العمر، وآنذاك شرع يدرس مبادئ علم الاستحكامات، وباختصار لم يكن مرهقًا بالدراسات والمعرفة، وكان يتميز بالكسل والبطر والتسلط والكبرياء، وضعف الإرادة والشطارة والثأر والغدر، وليس بوسع الأب أن

يتباهى بمثل هذا الابن، ولذا كان أحيانًا يعجز عن ضبط نفسه فيعرب عن خيبة أمله وحزنه.

وغرس جو الركود الذي عاش فيه ولي العهد عيوبًا كثيرة في نفسه، وأولها الرياء والإدمان على الشراب، ومن بين المقربين إليه ممن يسميهم ولي العهد «بالشلة»، على طريقة أبيه، أبناء عمومته وأخواله من آل ناريشكين وآل لوبوخين، والقس الذي يأتمنه على أسراره وآخرون، ولكهم، خلافا «لشلة» بطرس المكونة من رجال جادين يخدمون القيصر وروسيا، كانوا يكنون حقدا غير مستور تمامًا على أفكار أولئك الرجال، ومقاصدهم وأعمالهم، وكانوا يأجون كبرياء ولي العهد الشاب، ويهمسون في أذنه بأنه حال ما يتوفي أبوه، أو يقتل في مكان ما برصاصة طائشة، أو بضربة سيف، ومن حسن الحظ أن القيصر لا يلازم مكانًا واحدًا، ويتعرض للخطر دائمًا، فإن ولي العهد سيبدل كل شي على هواه، فيلغي المستحدثات التي لا حاجة لأحد بها، كما زعموا، ويعود إلى العادات، والتقاليد القديمة، ويحكم كما حكم أجداده في هدوء واطمئنان، وفي عظمة وروعة.

وكان بطرس يتابع باهتمام ابنه الناشيء، ويكلفه بهمات معينة، ويلومه على سوء التنفيذ.

ولم يكن الكسي بن بطرس يبدي اهتمامًا بالأعمال، فهو مهمل أكثر ما يهمه٨ السُكر مع الأصدقاء، والأحاديث التي تتعرض بالسخرية، والشجب لكل ما يقوم به الأب، وكان القيصر يرى ذلك، ويشتاط غضبًا بسببه.

وبعد أن تزوج الكسي من أميرة ألمانية أمضى في الخارج الفترة من ١٧١٠، حتى ١٧١٣، وبعد مراسيم الزفاف أدى مهمات كلفه بها أبوه، وكان إهماله باديًا هذه المرة أيضًا.

وكان الكسي قد كذب عندما أبدى استكانة ووافق، بإلحاح من أبيه، على التنازل عن حقوق ولاية العهد، فكان يعول على أمر آخر هو

وفاة أبيه، أو اندلاع انتفاضة، أو قيام انقلاب ضده، وكان يؤجج نواياه وآماله الأنصار الذين تحلقوا حوله.

وفي أواخر أيلول (سبتمبر) ١٧١٦ غادر العاصمة، وبدلًا من كوبنهاغن التي أوصاه بطرس بالرحيل إليها وصل إلى فينا في ١٠ تشرين (نوفمبر)، وكان في نية السَّاسة في فينا الاستفادة من ادعاءات الكسي بالعرش الرُوسي، لإضعاف مواقع بطرس وبلاده عشية انتهاء حرب الشمال، ووضع شروط الصُلح، ووعدوا الكسي بأحلى الوعود المغرية، إلا أن الإمبراطور النمساوي ومستشارية لم يكونوا في الوقت ذاته راغبين في استقبال الأمير الرُوسي في بلاطهم علنًا، ولذا خبأوه في تيرول ثم نقلوه إلى نابولي.

إلا أن الكابتن أ. روميانتسيف والدبلوماسي المحنك، ب. تولستوي كانا يتعقبان الأمير الكسي في حله وترحاله، ويسلمان رسائل القيصر إلى الإمبراطور، ويتعقد الموقف بالنسبة للعاصمة النمساوية، إذ أن القيصر يهدد النمسا بهجومٍ مسلح.

والتقى الكسي مع تولستوي وعرف من رسالة القيصر أن أباه يرى في تصرفاته خيانة، وزعم تولستوي أن القيصر قادم إلى نابلوي لمقابلة ابنه، وقال إنه سيحرك القوات المتحشدة في بولونيا ضد النمسا، وحطمت هذه الحجة عناده الذي استمر طويلًا.

وفي ٣ تشرين الأول (أكتوبر)، وصل الكسي إلى موسكو، وكان ينتظره في القصر أبوه وأعضاء السينات والجنرالات، وكبار القساوسة، وركع الكسي أمام أبيه، وتوسل إليه طالبًا المغفرة، ومستعطفا الإبقاء على حياته، ورد عليه بطرس قائلًا:

ـ سأمنحك ما طلبته، لكنك فقدت كل أمل في وراثة عرشنا، و يجب أن تتنازل عنه بوثيقة تذيلها بتوقيعك.

ووافق الكسي ووقع التنازل عن العرش، ونصت الوثيقة على عدم الإدعاء بالإرث، وعدم قوله بأية ذريعة كانت.

وتلى البيان الخاص بحرمان الكسي من حقوق الوراثة، وسرعان ما بدأ التحقيق مع الأشخاص الذين ذكر بأنهم مستشاروه، وأشرف بطرس بنفسه على الاستجواب، كما في عهد «التحقيق مع أفراد القوات الخاصة»، فوضع أسئلة لاستجواب الكسي، وبعث رسلًا يحملون توجيهات باعتقال الأشخاص المذكورين، وفي موسكو أعدم كيكين وآخرون، وفي بطرسبوغ التي انتقل إليها بطرس وحاشيته، استمر التحقيق والتعذيب، وشملا الكسي أيضًا، وبعد المحاكمة أحال القيصر تقرير مصير ابنه إلى كبار رجال الدولة، سدنة الكنيسة وأعضاء السينات والجنرالات وغيرهم.

وأثناء التحقيق تكشفت بالكامل آراء الكسي ونواياه، ذات مرة اعترف - بحضور أبيه وكبار رجال الكنيسة والمدنيين - بأنه كان ينوي إعلان الانتفاضة في كافة أرجاء البلاد، ولو حاول أبوه التنكيل بأنصاره لما تورع عن إبادة كل سكان البلاد، وكان يتصور بأن الشعب سيؤيده طالما هو يريد العودة إلى المعتقدات والعادات والأعراف القديمة، لأن الشعب يحبه ويعطف عليه، كان الكسي يجد في نفسه أحيانًا القوة الكافية للتفوه بهذه الأقوال، التي تكشف عن أحلامه وغطرسته ونواياه السخيفة الهوجاء المتناقضة، مثل تأكيده على حب الشعب له من جهة، واستعداده لإبادة هذا الشعب من جهة ثانية، وفي أحيان أخرى يبلغ به اليأس، والقنوط والانسحاق أبعد الحدود.

في تلك الفترة كان الكسي يعاني من خلل عصبي، كما قال معاصروه، وكان يتصرف بشكل لا يليق، حيث يتحايل ويفتري على المقربين إليه، ويكذب ويجهد نفسه ليقلل من ذنبه كخائن لقضية أبيه ولمصالح روسيا، وكان واضحًا أنه جن بسبب خوفه من الموت.

وفي ١٤ حزيران (يونيو)، زج به في سجن قلعة بتروبافلوفسكايا، وبدأ التعذيب في السجن، وصدر الحكم، صحيح أن رجال الدين تمصلوا، وابتعدوا عن الوضوح الكامل في قرار الحكم: فالمقتطفات التي أوردوها

من الكتـاب المقدس تقول من جهة بالموت للابن الـذي عصى أباه، ومن جهة أخـرى تتحدث عن قبول المسـيح توبـة الابن الضال، وتركـوا القرار لبطرس كـي ينظر فيه، أمـا الموظفون المدنيون، فقد اعربوا عـن رأيهم بوضوح، لا لبس فيه: الإعدام.

وفي ٢٤ حزيـران ١٧١٨ أعلـن عن حكم الإعـدام، لكنه لم ينفذ، فبعد يومـين قضى الكسـي نحبـه في قلعة بتروبافلوفسـكايا، ربما بسـبب الهزات والمعاناة، وفي ٣٠ حزيران دُفن، وحضر بطرس مراسيم دفنه.

وكانـت تلك النهاية الفاجعة خاتمـة للمجابهة الطويلة الأمد بين الابن والأب (وقد غدت من بداية القرن الثّامن عشـر مجابهة سـافرة)، وكان لابد لهـذه النهايـة أن تترك أثرًا إضافيًا في طبيعة بطرس، وحالته النفسـية بعد أن فقد ابنه، ووريث عرشـه، صحيح أن لديه ابنًا آخر من زوجته يكاترينا في الثّالثة من العمر، وأعلن أنه هو ولي العهد، لكن بطرس فقده في السَّنة التاليـة، تـوفي، ولم يبـق أمـل في ميلاد ذكر آخـر، وصعـق القيصر لهذه الضربة الجديدة، واختلى إلى نفسه في مضجعه ثلاثة أيام كاملة، ورفض مقابلة أحد أو تناول الطعام، وأرهقته نوبات التشنج.

لكن الحياة تسير، وسـيطر القيصر حسـب الظاهر على ألم الخسـارة وانهيـار آمال الأبوة، وشـرع يمارس أعماله التي تكاثـرت وما كانت تقبل التأجيـل، وغاص بطرس من جديد في دوامة الأحداث، وكان في ذلك ملاذا له من الآلام شأن سائر عباد الله.